

مكتبة نوبل

Author: Saint John Perse
Title : Lighthouses
Translator: Adonis
Al- Mada : P. C.
Special Edition 1998

اسم المؤلف : سان جون بيرس
عنوان الكتاب : منارات (الأعمال الشعرية الكاملة)
ترجمة : أدونيس
الناشر : المدى
طبعة خاصة : ١٩٩٩

الطبعة الأولى : ١٩٧٦(وزارة الثقافة ، دمشق)

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٢٠١٩ - ٢٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٢٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١
فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 2776864 , Fax: 2773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

١٩٦٠
مكتبة نوبل

سان جون بيرس

منارات

(الأعمال الشعرية الكاملة)

طبعة جديدة منقحة

ترجمها عن الفرنسية

أدونيس



ابتهال

ـ وأنت ، يا بحار

دور

I ـ مدن عالية كانت تستضيء على امتداد وجهها البحري

II ـ من سيد النجوم والملاحة

III ـ جاءت النساء التراجيديات

IV ـ النبيلات كذلك على الارصفة

V ـ اللغة التي كانتها الشاعرة

VI ـ وهذه الأنثى عند الكهان

VII ـ مساء مُرقّى بيدٍ إلهية

VIII ـ أيها الغريب ، يا من شراعه

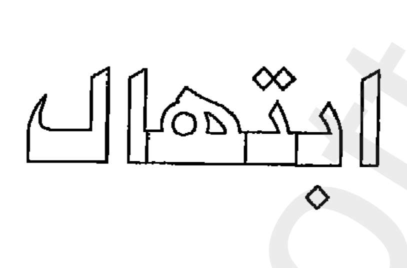
IX ـ ضيقة هي المراكب

جوقة

ـ يا بحر البعل ، يا بحر مامون

اهداء

ـ الجنوب ، وحوشه ، مجاعاته


ابتهال

وأنت ، يا بحار ...

١

وأنتِ ، **يا بحاراً** ، كنتِ تقرأين الأحلامَ الأكثر اتّساعاً ، هل ستتركيننا ذات مساءٍ إلى منابر المدينة ، بين السّاحة العامّة ، وعناقيدِ البرونز ؟

أكثرُ رحابةً ، أيّها الحشد ، مجلسُنا على هذا المنحدر من عصرٍ بلا انحدار : **البحر** ، هائلاً وأخضرَ كفجرٍ في شرق البشر ،

البحر معيّداً على أدراجه كأنشودةٍ من الحجر : بَيْرمَونٌ وعيدٌ على تخومنا ، صخَبٌ وعيدٌ بعلوِّ البشَر ـ **البحر** نفسه سَهرُنا ، كأنّه إيذانٌ إلهيّ...

عبير الوردة المأتميُّ لن يحيط بعد بسياج القبر ؛ الساعَة الحيّة في النّخيل لن تُسكِتَ بعد روحَها الغريبة... وشفاهنا الحيّة هل كانت أبداً ، مرّةً ؟

في نيرانِ اللجّ رأيت الشيء الكبير المعيِّد يبتسم : البحر

محتفلاً بأحلامنا ، فِصْحاً من العشب الأخضر وَعِيداً يُعيّد ،

البحر كلّه يُعيِّدُ عيد التّخوم ، تحت مَصْقَرتهِ من الغيوم الكثيفة البيضِ ، كمنطقةِ عبورٍ وكأرضٍ موقوفة ، كإقليم عشبٍ مجنونٍ قُومِرَ به...

اغمرْ ، أيها النّسيم ، ولادتي! ولْتَتّجِه رعايتي إلى ملعب الحدقاتِ الأكثر اتّساعاً! حراب الظّهيرة تتمايل عند أبواب الفرح . طبول العدم تنحني لمزامير الضوء . والمحيط ، من كلّ صوبٍ ، يَدُوسُ عبئه من الورود الميّتة ،

وفوق شُرُفاتِنا الكلسيّة يرفع رأسه الوالي!

٢

« ... سَأبكيكم ، فهذه بيننا نعمة فائضة .
« أُبكيكم من النعمة ، لا من العذاب ، يقول منشد النشيد الأجمل ؛
« من هذه اللّهفة القلبية الصّافية التي أجهل ينبوعها ،
« ومن هذه الهنيهة البحريّة الصّافية التي تتقدّم النسيم... »

هكذا كان يتكلّم رجل بحرٍ ، يتحدّث عن رجل بحر .
هكذا كان يمدح ، فيما يمدح الحبّ وشهوة البحر
ونحو البحر ، من كل صوبٍ ، هذا التدفُّقُ مِنْ ينابيع اللذّة...

« هذه حكايةٌ سأرويها ، هذه حكاية ستُسمَع ،
« هذه حكاية سأرويها كما يليق أن تُرْوَى ،
« سيكون سَرْدُها لُطفاً يفرضُ الاستمتاع بها :

« يقيناً ، هي حكايةٌ يُشتَهى سماعها كذلك في غفلة الموت ،
« وَلتبْقَ هي هي ، نَدِيّةً ، في قلب الإنسان الذي لا ذاكرة له ،

«نعمةً جديدة وكمثل نَسيمٍ من مصّبٍ نهريّ فسيحٍ قريبٍ إلى مصابيح الأرض .

«وبين هؤلاء الذين سيسمعونها ، جالسين تحت شجرة الحزن الكبيرة ،

«قليلون هم الذين ينهضون ، ينهضون معنا ويمضون ، باسمين ،

«في خنشار الطفولة وامتداد عكاكيزِ الموت» .

٣

شعرٌ لكي يُرافِقَ مَسيرةَ انشادٍ من أجل **البحر** .
شعرٌ لكي يُؤازِرَ المسيرة حول **البحر** .
كالسّير حول المذبَح وكانجذاب الجَوقةِ في مُحيطِ الدّوْر .

وهذا نشيد بحرٍ كما لم يُنشد أبداً ، و**البحر** فينا هو الذي سينشده :

البحر ، محمولاً فينا ، حتى اختناقِ النَّفَس ، حتى خاتمةِ النَّفَس ،

البحر ، فينا ، حاملاً من اللّج هديره الحريريّ ونداوتَهُ الكبيرة كلّها من حظوظ العالم .

شعرٌ لكي يخفّف حُمّى السّهر في مَطاف البحر . شعر لكي نُحسِنَ السَّهَرَ في غبطة البحر .

وهذا حلمٌ بالبحر كما لم يُحْلَمْ به أبداً ، والبحر فينا هو الذي سيحلمه :

البحر ، منسوجاً فينا ، حتى أدغاله السَحيقة المهاوي ، البحر فينا ، ناسجاً ساعاته الضوئيّة الكبيرة ، وآثارَهُ الفسيحة المعتمة ـ

الإباحة كلّها ، الولادة كلّها ، والتّوبة كلّها . البحر! البحر! في فيضه البحريّ ،

في ازدحام فُقاعاتِهِ وحكمة حليبه الفِطْريّة ، آه! في الغليان المقدّس لحروفه الصّائِتة ـ الفتيات القدّيسات! الفتيات القديسات!

البحر نفسه زَبَدٌ كلّه ، كمثلِ سيبيل التي تتلألأ على كرسيّها الحديديّ...

٤

هكذا تقلّد ، أيها البحر ، مديحاً بلا إهانة .
هكذا كن الضّيفَ الذي يليق به أن يخفيَ امتيازه .
ولن يكون كلامٌ على البحر ذاته ، بل على سيادته في قلب الإنسان .
كم يَحسُن ، في التماس الأمير ، أن نضعَ العاجَ أو حجرَ اليَشْبِ
بين الوجه السيّد والمديح المداهن .

أنا ، مُنْحنياً لمجدكَ انحناءَ بلا ذلّ ،
سَأستنفد اعتدال الجسم ومهابته ؛
وسوف يُسكر دخانُ اللّذة رأسَ المتعبّد ،
وسوف تلد غبطة القول الأجمل نعمةَ الابتسامة...

سنحيّيك ، أيها البحر ، تحيّةً يبقى ذكرها طويلاً كذكرى قلبٍ يَستريح .

٥

... من زمنٍ طويلٍ اذن كنت أَستشعِرُ هذه القصيدة ، مازجاً بأحاديثي اليومية هذه الوحدةَ كلّها من الأَلق البحريّ الكبير ، بعيداً - كمنجمٍ مُفَاجِىءٍ من سماءٍ زرقاءَ جُمانيّة ، في طرف غابةٍ ، بين أوراق الصّمغ الأسود : حرشفاً لامعٌ ، بين عيون الشّبكة ، لِسمكةٍ كبيرةٍ مأخوذةٍ بخياشيمها!

وَمَنْ فاجأني في حديثيَ السريّ ؟ كنت محروساً بالبسْمَة والعناية ؛ أتكلّم ، أتكلّم لغَة غريبٍ بين بشَرٍ أقربائي - ربّما في زاوية حديقة عامّة ، أو قرب سورٍ حديديّ حول قنصليّةٍ ، مطعّمٍ بالذهب ؛ وربّما كنت ألتفتُ وكان نظري يتجه بعيداً ، بين عباراتي ، نحو طائرٍ ينشد نشيده فوق مركز قيادة المرفأ .

ذلك أنني أَستَشعِرُ هذه القصيدة من زمنٍ طويل ، وكان من اليُمْن أن أنقطعَ لها : مَغزوّاً ، مُحاصَراً ، تهدّدني القصيدة الكبيرة

كما يهدّد محلول اللؤلؤ ؛ وديعةً في تدفّقها ، كالبحث عن مُنتَصفِ اللّيل ، في تموّجٍ بطيءٍ لأمواج الحلم ، حين تسحبُ اللّجة بهدوءٍ حبالَ المراكب .

وكيف خطرَ لنا أن نبدأ هذه القصيدة ـ هذا ما كان ينبغي قوله . لكن أليس كافياً أن نرى فيها لذّتنا ؟ ولكم كان طيّباً ، أيّتها الآلهة ، أنني تعهّدتُها ، قبل أن تُسْتَعاد... امض ، أيها الطفل ، وانظر في منعطف الشارع ، كيف أنّ فتيات هالّي ، الزائرات الجميلات السّماويات في ثياب الكاهنات ، تلتقطهنّ في الليل صنّارة من الزجاج ، ويتحفّزن للهرب عند المنعطف الإهليلجيّ .

الزّوجة في البعيد متعةٌ ، والزّواج سرّي!... نشيد العرس ، أيّها البحر ، سيكونُ لأجلِكَ النشيد : «نشيدي الأخير! نشيدي الأخير! والذي سيكون نشيد رجلٍ بحري...» وأسألك ، أيّ نشيد غيره كان سيشهد للبحر ـ البحر بلا نُصُبٍ ولا أروقة ، بلا طرقٍ تحيطها القبور ودونَ قلاعٍ مروقة ، البحر دون مَجْدٍ حجريٍّ في شُرفاتهِ الدائريّة ، ودونَ صفٍّ من الحيوانات التي تجلّلها الأجنحة على امتداد الشوارع ؟

أنا الحاملُ عبء الكتابة ، سأمجّد الكتابة . كمن قدَّم نفسه ، عند تأسيسِ عملٍ نذوريّ عظيم ، لتدوين النّصّ واعلانه ، والتمسته جمعيّة الواهبين ، لأنه الوحيد المهيّأُ لذلك . ولم يعرف أحدٌ كيف ابتدأ العمل : ربّما ، في حيّ قصّابين ، أو صهّاري معادن ـ في فترة هياجٍ شعبيّ ـ بين أجراس مَنْع التجوّل وطبول فجرٍ حربيّ...

وفي الصباح كان البحر الجديدُ الاحتفاليُّ يبتسم له على طرقهِ الشاطئيّة . وها هي الغريبة تتمرأى في صفحته . ذلك أنه منذ وقتٍ طويل يَستَشْعِرُ طعم هذه القصيدة ، مأخوذاً بها الى هذا الحدّ . وكان عذباً الى هذه الدّرجة ذات مساءٍ أن يَنْقَطع لها ، مستسلماً بمثل هذا الجزَع . وكانت الابتسامة تمدّ لها يد الوحدة... «نشيدي الأخير! نشيدي الأخير!... والذي سيكون نشيدَ رجلٍ بحريّ... »

٦

والبحر هو الذي جاءنا على درجات المأساة ، الحجرية :

مع أمرائه ، وأوصيائه ، ورسله الذين يَتَسَرْبَلونَ بالزّهو والمعدن وممثليه الكبار ذوي العيون المفقوءة ، وأنبيائه الأسرى ، وساحراته المدبدبات بقباقيبهنّ الخشبيّة ، المليئات الأفواه بالخثارات السّوداء ، وجِزْيَتهِ من العذارى الماشيات في أخاديد التَّرْتيل ،

مع رُعاته ، وقرصانه ومرضعات الأطفال ـ الملوك ، ورُحّله الشيوخ في المنفى ، وأميرات الرثاء ، وأرامله الكبيرات الصّامتات تحت رمادِ شهير ، ومغتصبي العروش الكبار ، وبُناة المستعمرات البعيدة ، وقساوسته وتجّاره ، والوكلاء الكبار ناهبي أقاليم القصدير ، وكبار حكمائه المسافرين على جَواميسِ حقول الأرزّ ،

مع قَطيعِه كلّه من البشر والمسوخ ، آه! نسْلِ خرافاته

الخالدة ، كلّه ، رابطاً بهدير حشوده من العبيد والأرقّاء لقطاءه المقدّسين الكبار وبناته العظيمات من الفحول ـ حشدٍ يركض منتصباً في ممرّاتِ التاريخ ، ويتجه كتلةً كتلةً صوب الحلَبة ، في القشعريرة الأولى للمساء المُعطَّر بالفَوقَس ،

والإنشادُ سائرٌ صوب الكاتب وصوب شفتي قناعه الملوّنتين .

*

هكذا جاءنا البحرُ بعمره الكبير وتجعّداته الكبيرة القديمة ـ البحر كلّه في هجومه البحريّ ، دفعة واحدة وقطعة واحدة!

وكمثلِ شعبٍ جديد اللّغة ، وكمثل لغةٍ جديدة العبارة ، ناقلاً إلى موائده البرونزيّة أوامره السّامية ،

بتهيّجاتٍ كبيرة وانتفاضاتٍ لغويّة كبيرة ، بتضاريسَ عظيمةٍ من الصور ومنحدرات الظّلال المضيئة ، منطلقاً الى بهاءاتِه الضخمة بأسلوبِ العهد ، المُدهشِ ، كمثله ، في نيرانه العظيمة من الحراشف والبروق ، وفي قلب الأَسْراب البطولية الضارية ،

البحر المتحرك الذي يتبع انزلاق عضلاته الضّخمة الشاردة ، البحر الدّبق الذي يزلق كغشاء الرّئة ، جاءنا بفيضه البحري كلّه ، في حلقاتِ ثعبانه الأسود ،

شيئاً ضخماً يتقدّم صوب المساء وصوب الانتهاكِ الآلهي...

*

وكان ذلك عند الغروب ، في الارتعاشات الأولى للمساء المثقّلِ بالأحشاء ، حينما ، على الهياكل المرصّعة بالذّهب وفي الحلَبات القديمة السَّبك التي يُثقّبها الضوء ، يَستيقظ الرّوح القدسيَ في أعشاش البوم ، وسط النموّ المفاجىء للنباتات الجدارية الوفيرة .

وفيما كنّآ نجري إلى ميعاد أحلامنا ، فوق منحدرٍ عالٍ من الأرض الحمراء مُغَطّىً بالقرابين والماشية ، ونسير فوق أرض التضحية الحمراء المزينة بالتوابل والعناقيد ، رأينا كجبهة كبشٍ تحت أهداب الذهب وتحت الأوشحة ، رأينا هذا الوجه الآخر لأحلامنا يعلو : الشيء المقدّس في جَزْره الأدنى ، البحر ، الغريبَ ، هناك ، الساهر سهرَ الغريب ـ فريداً لا يصالح ولا يتزاوج ـ البحر التائه الأسير في شَرَكِ ضلاله .

كان لنا ونحن نرفع أقواسَ أذرعِنا ونُطلق «آهَنا...» ، كان لنا هذا الصراخ البشريّ في الحدّ الأقصى لما هو انسانيّ ؛ كان لنا ، على جبهتنا ، هذه الخدمة الملكية للقربان : البحر كله دخانٌ من نذورنا كَدنٌ من المرارة السوداء ، وكمثل قَصعةٍ كبيرة من الأحشاء والأكارع في ساحات الكاهن المرصوفة!

كان لنا ، كان لنا... آه! كرّروا ، أكان هكذا حقاً ؟... كان لنا ـ كمثل أبّهة مرارةٍ وخمرٍ سوداوين! ـ البحر أعلى من وجهنا ، في علوّ روحنا ؛ وفي فجاجته التي لا اسم لها والتي بعلوّ روحنا ، كلّ جثمانه النزق فوق طبل السماء ، كما فوق جدران الطّين المهجورة العالية ،

فوق أربعة أوتاد خشبية ، ممدوداً ، جلد جاموسٍ مصلوب .

*

... ومن أعلى ، من أعلى ، ألم نرَ البحرَ أكثر علوّاً ،

وجهاً غسله النسيان في امّحاء الإشارات ، حجراً تبرّأ من تتوئهِ ونسيجه ؟ ـ ومن الأعلى والأبعد ، البحر الأكثر علوّاً والاكثر بعداً... بلا دلالةٍ ، وبلا رَقْم ، صفحة ليّنة مضيئة قرب ليل الأشياء ، الشفّاف ؟

آه! أية شجرةٍ من الضوء كان نبعُ حليبها ينبجس هنا... لم نرضع من ذلك الحليب! لم نكن مختارين لتلك المرتبة! وكانت رفيقاتنا هَشّاتٍ كسحابات الصيف... احلم ، آهِ ، احلم عالياً ، حلمَك الإنسانيّ الخالد!... «آه! لِيقتربْ كاتبٌ ، وسأملي عليه...»

أهناك والٍ آسيويّ أُسْنِد اليه تنظيم اللعب والأعياد حلم هذا

الحلمَ من الفضاء والراحة ؟ وأن تكون فينا مثل هذه الرّغبة في أن نحيا بهذا العلوّ ، أليس هذا ما يميزنا ، أيتها الآلهة ؟ أيتها الأجفان لا تنطبقي أبداً ان لم تقبضي على لحظة من العدالة كهذه!
«آه! لِيقتربْ رجلٌ وسأملي عليه...»

السماء التي تصيرُ بِزُرقة النورس تعيد لنا حضورنا ، وفي الخلجان المهاجَمَة تمضي مصَابيحُنا الملايينُ من القرابين ، تائهةً ـ كما عندما يُرمى كبريتُ الزّئبق في اللهيب لتمجيد الرّؤيا .

*

لأنّكَ ستعود الينا ، أيها الحضور ، في ريح المساء الأولى ،

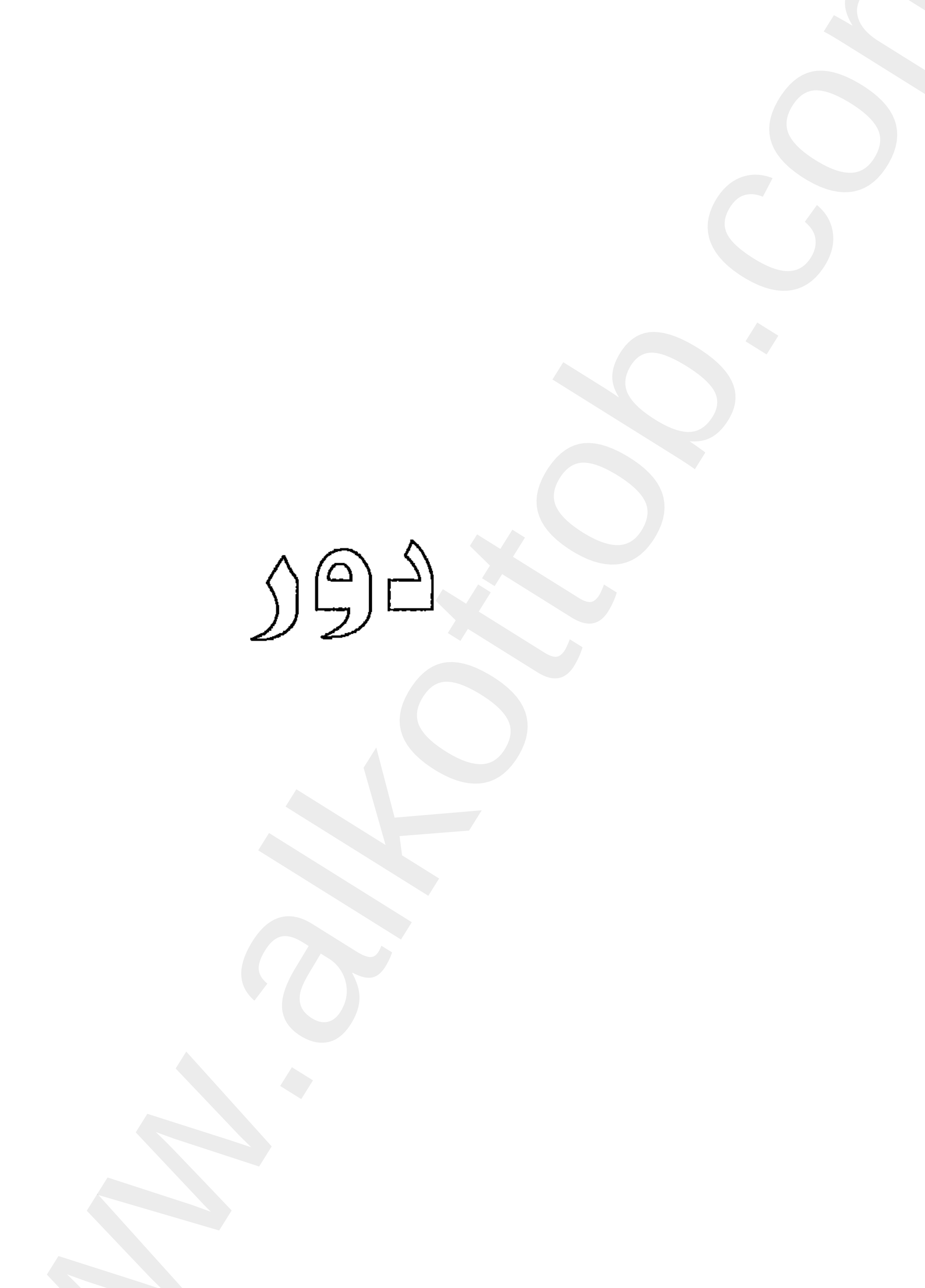
بجوهرك وجسدكَ وثِقلك البحري ، أيها الصلصال! بلونك لون حجر المائدة والاسطبل ، أيها البحر! ـ بين المواليد من الناس وأقاليمهم من الدُلْمَنِ الضخم ، أنتَ يابحر القوة والحَرْث ، البحرُ المعطر بالفوسفور والأحشاء الانثوية ، في سياط الخطف الغليظة المتجبرة! يا بحراً يمكن أن تقبض عليه نارٌ في أجمل أفعال الروح!... (حين يقيم البرابرة في القصر وقتاً قصيراً ، هل يزيد الاتصال ببنات المماليكِ بمثل هذه الحدّة ، صخبَ الدم ؟...)

«خذيني ، أيتها اللذة ، في دروب كل بحر ؛ في ارتعاش كل

نسيم حيث تنشط اللحظة كعصفورٍ يرتدي ثياب أجنحته... سأمضي ، سأمضي في طريقٍ من الأجنحة ، حيث الكآبة نفسها لم تعد الا جناحاً... الوطن الجميلُ دانٍ لافتتاحه من جديد ، الوطن الجميل لملكٍ لم يره منذ الطفولة ، ودفاعه في نشيدي . مُرْ ، أيها المزمار ، بالعمل وبهذه النعمة من حبٍ لا يضع في أيدينا الا سيوفَ الفرح!...»

وأنتم ، من أنتم اذن ، أيها الحكماء! لكي توبخونا ، أيها الحكماء ؟ ان كان حظّ البحر لا يزال يغذّي ، في موسمه ، قصيدة عظيمةً خارجَ العَقْل ، فهل ستأبون عليَّ بلوغها ؟ انها مملكتي ، أدخل اليها ، أنا ، ولا أخجل من لذتي... «آه! ليقتربْ كاتِبٌ وسأملي عليه...» ومَن إذن ، من بني البشر ، يقف ازاء فرحي بلا خطيئة ؟

ـ أولئك الذين يرون ، بالولادة ، أنّ خبرتهم فوق المعرفة .



دور



I

مدن عالية كانت تستضيء

على امتداد وجهها البحري

١

مدنٌ عالية كانت تستضيء على امتداد وجهها البحري ، وبأعمالٍ كبيرة من الحجر كانت تَستحمُّ في أملاح اللج الذهبية .

كان ضباط المرفأ يجلسون كرجال الحدود : شروط المرور ، مورد السفن ؛ أشغال لوضع الحدود ، وتنظيمات للانتجاع .

كنا ننتظر مفوّضي المدّ . ها! ليُقدّم لنا أخيراً الاتفاق!... وكان الحشد يتجه الى مقدّم جدران التحصين في ماءٍ حيٍّ ،

في أسفل المنحدرات العُرْفيّةِ ، حتى الرؤوس الصخرية ، على سويّةِ البحر ، التي هي المهماز والسيفُ لتصوّراتِ الرّسْم ، الحجرية الكبرى .

أيّ كوكبٍ مخادع شوّشَ الرّقم بمنقارٍ قرْنيّ ، وقلبَ الإشارات على مائدة المياه ؟

قربَ أحواض ماء الهَويسِ لكهان التجارة ، كذلك في الأجران المعطوبة للكيميائي والهرَّاس ،

كانت سماءٌ شاحبة تُشعشعُ نسيانَ علامات الأرض... وكانت الطّيور البيضاء تلوث أعاليَ الجدران الكبيرة .

٢

هندسة تخومية . أشغال متنوّعة في المرافىء... نتوسل اليك ، أيها البحر الفاصل ، وأنتِ ، يا أرض هابيل

الضرائب قبلت ، حقوق الارتفاق تبودلت . الأرض قابلةٌ للعملِ وفْقاً لِحكم الحجر!

كان البحر القابِلُ للإجارةِ يفتح كُتَلَ يَشْبهِ الأخضر . والماء السهل يغسل القواعد الصامتة .

«التمسْ ذَهَبك ، أيها الشاعر ، من أجل خاتم الاتّحاد ؛ وخلائِطك من أجل الأجراس ، في مسالكِ ارشاد السفن .

«انه النسيم البحري في جميع الأبواب ، انه البحر في أطراف الشوارع كلها ؛ نسيمٌ وبحرٌ في حِكَمِنا وفي ولادة شرائعنا .

نموذجٌ للترف الأعلى مسلَّمٌ به : جسد امرأةٍ ـ دورة قمريّة! ـ

وللمدينة الخالية من العاج ، اسمُكِ الأنثوي ، أيتها النبيلة! »

ذلك أنّ كلَّ مالَنا لِلإجارة ، ويكفي أن نشبكَ الوقتَ في زَرَدِ أحواضِنا الصُّفْر...

كان البحر بتشنّجاته المَدُوزية ، يمارسُ مَردَّاته الذّهبية ، بجملٍ كبيرةٍ مضيئة وغَمرَاتٍ عظيمة من نارٍ خَضراء .

وكان رجال الذاكرة يقترعون من أجل حيوانٍ مجنح ، والشّعار المتثائِبُ لايزال بين إهداءاتِ مدخل المرفأ .

لكن الخِطامَ الذّكر ، في خَطْمِ الأرصفة ، تحت شعار الريشة البيضاء ، كان يحلم ، يحلم بين الزبد ،

بالمرابط الأكثر بعداً حيثُ يتصاعد الدخان من فُتْحاتٍ أخرى...

٣

كان التّاريخ في موضع آخر أقلّ وضوحاً . وكانت مدنٌ منخفضة تزدهر جاهلةً البحر ، وطيدةً بين روابيها الخمس وغزالاتها الحديدية ؛

أو تنهض ، بخطوة الرّاعي ، بين العشب ، مع بَغَلاتِ المحامل ودواب العشّار ، وتمضي لتعمرّ عالياً ، منحدر أرضٍ خصبة ، زكاتيّة .

لكنّ مدناً أخرى ، متعبةً ، كانت تستند على امتداد المياه بجدرانها الكبيرة ، جُدران المَلاجىء والسّجون الإصلاحيّة ، والتي هي بلون اليانسون والشُّمرة ، ولون نَبْتةِ الشَّرُونة .

وأخرى كانت تنزف دماً كأمّهاتٍ ـ عازباتٍ ، مُبقَّعات الجبين بالحَزاز ، والأقدامِ بالحَرْشَف ، تهبط في المواحِل بخطوة غاسلات المراحيض .

مَرْفأ جنوحٍ على عكاكيز . طنابرُ على ضفاف بحيرات الشاطىء ، فوق أكداس الطّمْي والطباشير الأسود .

تعرف هذه النهايات للدّروب والأزقّة ؛ هذه الممّرات لجرّ السُّفن ، وحُفر الانتفاع ، حيث يسكب الدّرجُ المكسَّرُ أبجديّته الحجرية . رأيناكَ ، يا منحدرَ الحديد ، وهذا الخطَّ من الرّسوب الورديّ في أسفل الجَزْر ،

هناك حيث تخلعُ ، ذات مساء ، اناث المَقْذَرة ، تحت بصر الطفولة ، خِرَقَهُنَّ الشهريّة .

هنا المُخدَع الشعبيّ ومِحفّتهُ من الدّم المتجمّد الأسود . البحر الذي لا يفسد ، يغسل فيه أوساخه . وهذا ولوغُ كَلبَةٍ في تَسوُّسِ الحجر . يتهيأ لخطوطِ الّلأْم كِساءٌ ناعِمٌ من طحالب صغيرة بنفسجية ، كشعر القُنْدس .

أكثر علواً السّاحَةُ التي لا بئرَ فيها ، المبلَّطَةُ بذهبٍ قاتمٍ وليلٍ أخضر كطاووسةٍ من كولشيد . وردة الحجر الكبيرة السّوداء لِصباحاتِ الفتنة ، والنّبع ذو الصّنبور النحاسي حيث ينزف الإنسان كالدّيك .

٤

كنتَ تلجأ ، يا ضحكَ المياه ، الى هذه المداخل الأرضية .

بعيداً كان المطَرُ الوابلُ الذي تخترقه أزهار السّوسن والمناجل المضيئة يَبْدأُ حبّه للسّهول ؛ وكانت الخنازير الوحشيّة تنبش التّرابَ ذا الأقنعة الذهبيّة ؛ والشيوخ يهاجمون البساتينَ بالعصيّ ؛ وفي أعالي الأوديةِ الزرقاء التي يملؤها العُواء ، كان القَرْن الآمِرُ للخفير الزراعيّ ينضمّ في المساء الى محارَة السّمّاك... وكان رجالٌ يحملون شُرشوراً أصفرَ في قَفَص من الصّفصاف الأخضر .

آه! لِتَملّكْنا أخيراً حركةٌ أكثر اتساعاً للأشياء في شاطِئها ، لجميع الأشياء في شواطئها ، كما لو أنّ ذلك بأيْدٍ أخرى ، السّاحرةَ القديمة : الأرض وبلّوطها الأشقر ، الجديلة السّحرية الكثيفة ، ونَمَش المساء السّائر في الحَدَقاتِ الدّاجنة!

كان وَقْتٌ شَرِهٌ يَتَأرجَنُ في نباتات الخزام البَحريّ . واستيقظت

كواكبُ لها لَوْنُ نعناع الصّحراء . وكانت شمس الراعي ، في أثناء غروبها ، تحت زمْزمةِ النّحل ، جميلةٌ كمجنونٍ في أنقاض الهيكل ، تنحدر حتّى المشاغِل نحو أحواض التّرميم .

هناك ، بين رجالِ الحَرْث وحدّادي البحر ، كان الغرباء الذين قهروا ألغاز الطّريق ، يرتوونَ خمراً . هناك ، قبيل اللّيل ، كانت تتدفأ الرائحة الفَرْجيّةُ لأمواج الجَزْر . كانت نيران الملجأ تحمرّ في سِلالها الحديديّة . كان الأعمى يدلّ على سرَطان القبور . وكان القمر في حيّ العَرافات السّوداوات ،

ينتشي بمزامير حادّة وضجيج قصديريّ : «يا لعذاب البشر ، يا لنار المساء! مِئة إلهٍ أخرس فوق ألواحهم الحجريّة! لكن البحر أبداً وراء موائدكم العائليّة ، وهذا العطر الطحلبيّ من المرأة ، بطعمه الأقلّ تفاهةً من خبز الكَهنة... قلبك الإنسانيّ ، أيهاالعابر ، سَيخيّمُ هذا المساء مع رجال المرفأ ، كقِدْرٍ من اللهب الأحمر فوق الجؤجؤ الغريب» .

تَنْبيهٌ لسيد النجوم والمِلاحة .

II

من سيد النجوم والملاحة

من سيد النجوم والملاحة :

«سموني **الغامض** ، وكان حديثي عن البحر .

«السنة التي أتحدث عنها أنا هي السنة العظمى ؛ **البحر** حيث أسأل هو **البحر** الأعظم .

«الخشوع لشاطئك ، أيها الجنون ، يا بحر اللذة الأعظم...

«الحال بائِسٌ على الأرض ، لكن ملكي هائلٌ على البحار ، وغنيمتي على موائد ماوراء البحارِ لا تُحصى .

«المساء المزروع بالأنواع المضيئة

«يبقينا على شاطىء المياه المتموجة كما تبقينا آكلة الخبّازى على طرف غارها .

«تلك التي اعتاد الربابنة الشيوخ الذين يرتدون ثياباً من

الجلد الأبيض ورجالهم الكبار المحظوظون حاملو الأدوات الحربية والكتابات ، أن يحيّوها بهتافٍ بارّ ، عندما يقتربون من الصخر الأسود المزين بالقباب .

«هل سأتبعكم ، أيها المحاسبون ، يا أساتذة الرّقم!

«وأتبعكِ ، أنت يا ألوهاتٍ خفية وماكرة أكثر مما هي ، قبيل الفجر ، قرصنة البحر ؟

«تجار الأوراق المالية البحريون ينخرطون بغبطةٍ في المُضاربَات البعيدة : المراكز تُفتح ، عديدةً ، في نار الخطوط العمودية...

«أكثر من السنة الشّمسيّة المفتوحة على آلاف آلافها ،

يحيط بي البحر الشامل . الهاوية الملعونة نعيمٌ لي ، والانغماس فيها إلهيّ .

والنجمة التي لا وطن لها تشقّ طريقها في مرتفعات العصر الأخضر ،

وامتيازي على البحار هو أن أحلم لكم هذا الحلم عن الواقع... سموني الغامض وكنت أسكن البرق» .

*

«تقدمْ ، ياسرّ العالم ، ولْتأتِ اللحظة

«التي تُؤخَذُ فيها أخيراً الدِّقَّةُ من أيدينا... في الزيت المقدس رأيت الهِبَاتِ الكبيرة تنساب جارية من مصنع الساعات السماوي ،

«والراحات الكبيرة المحبَّبة تفتح لي دروب الحلم الذي لا يرتوي ، «ولم أخف من رؤياي ، بل طمأنتني الدهشة ، فأبقيت عيني مفتوحة لهذه الحظوة العظيمة ، في التملق .

«يا عتبة المعرفة! يا مدخل السّطوع! آثارُ خمرة شهدت ولادتي ولم تُعصَر هنا .

«البحر نفسه هتافٌ مفاجىء! أيها البحر المصالح ، أيها الشفيع الوحيد!... صرخة طائرٍ على الصخور والنسيم يركض الى مقره ،

«والظل يعبر من الشّراع الى تخوم الحلم...

«أقولُ كوكب يقطع قيده في حظائر السماء . والنجمة التي لا وطن لها تشقّ طريقها في مرتفعات العصر الأخضر... سموني الغامض وكان حديثي عن البحر» .

*

«الخشوع لقولك ، أيها الربان . ليس هذا لعين الجسد ،

«ولا للعين البيضاء المهدّبة بلون أحمر يُرسَم على أطرافِ المراكب . حظي في تملّق المساء وفي نشوة الأَرْغُوسِ الزرقاء حيث يتدفّقُ النفَس النبوي ، كلهب نار خضراء في نباتات الصخر .

«أيتها الآلهة! لا حاجة للبخور وللعطر فوق المواقد الحديدية ، في أطراف الجبال الداخلة في البحر ،

«لكي تشهدَ الفجر الديلوسيَّ الكبير ، يسير على المياه ، قبل النهار ، بخطى أنوثته ، وتحت براقعه المحلولة...

« ـ الأشياء كلها قيلت في المساء وفي تملق المساء ،

«وأنت الذي تعرف ، يا حلماً لم يُخلقْ ، وأنا ، المخلوق ، الذي لا يعرف ، ماذا نفعل على هذه الشواطىء غير أن ننصب لليل شباكنا ؟

«واللآئي يستحممن في الليل ، على طرف الجزر ذات القباب ،

يطوقن جرارهن الكبيرة بأذرع عارية ، ماذا يفعلن ، أيّتها البارّات ، غير ما نفعله نحن ؟ سموني الغامض ، وكنت أسكن البرق» .

III

جاءت النساء التراجيديات ...

جاءت النساء التراجيديات ، هابطات من مقالع الحجر . رفعن سواعدهن تمجيداً للبحر : «آه! كان تدشيننا أفضل بخطوة الرجل فوق الحجر!

«أيها البحر الذي لا يفسُد ، يا بحراً يحاكمنا! آه! أَخْسَنَّا ظننَّا كثيراً في الإنسان تحت القناع! ونحن اللواتي نقلد الرجل بين التوابل الشعبية ، ألم نكن نستطيع أن نتذكر على الرمال هذه اللغة العليا ؟

«نصوصُنا ديست على أبواب المدينة ـ باب الخمر ، باب البذار ـ .

«الفتيات يجررن الى النبع عُرْفَنَا الأسود المستعار العريض ، وريشنا الثقيل المهترىء ، والأحصنة تشبك حوافرها بأقنعة المسرح الكبيرة .

«أيتها الأشباح ، قيسي جباهك التي تشبه جباه القِردة والإيغوانا ، بالنقش البيضوي الكبير في خُوَذِنا ، كما يفعل الحيوان الطفيليّ في جُحر الأصداف... لبؤاتٌ كهلات في الصحراء يرهقن الحلقات الحجرية على المسرح . والحذاء الذهبي للتراجيديين الكبار يلمع في حفر البول في الحلبة

«مع النجمة النّبيلة ومفاتيح الغروب الخضراء » .

*

«لكن لا نزال نرفع سواعدنا تمجيداً للبحر . للإبط المزعفر ملحُ الأرض وبَهارُها كله! ـ نقشُ جسد بارز ، بشكل الكاذة ، كذلك هذه التَّقْدِمةُ من الصلصال الإنساني حيث يلجُ وجه إلهٍ لم يكتمل .

«في مجلس المدينة ، حيث البحر هو المشهد ، لاتزال قوس الجمهور الممدودة تستبقينا على وترها . وأنتَ يا من ترقص رقص الجمهور ، يا كلام آبائِنا الرفيع ، أيها البحر القَبَلي على باديتكَ ، هل ستكون لنا بحراً بلا جواب وحلماً أكثر بعداً من حلم سارمات ؟

«عجلة المأساة تدور على رحى المياه ، تسحق البنفسجة السوداء والخرْبق في أثلام المساء المدمّاة . وكل موجةٍ ترفع نحونا قناعها الذي يشبه قناع الكاهن . ونحن نرفع سواعدنا تمجيداً ونتجه صوب البحر نغذي تحت آباطِنا مشافِرَ المساء المدمّاة ،

«بين الجمهور ، نحوَ البحر ، نتحرك جماعيّاً حركةً واسعة تأخذها من كل تموجٍ خواصرنا الريفية العريضة ـ آه! أكثر تأرّضاً من السوقة ومن قمح الملوك!

وكواحلنا مرسومة كذلك بالزعفران ، وراحاتُنا بالأرجوان ، احتفاءً بالبحر!»

*

جاءت النساء التراجيديات يهبطن الأزقة . خالَطْنَ أُنَاسَ المرفأ بثيابهن المسرحية . شققن طريقهن الى حافة البحر . وبين الجمهور تَمَوْضَعتْ خواصرهن الريفية العريضة . «ها هي سواعدنا ، ها هي أيدينا! ها هي راحاتنا مرسومة كالأفواه ، وجراحنا ملفّقة لأجل المأساة! »

كن يمزجن بأحداث النهار أقداحهن الكبيرة الموسَّعة وأجفانهن الأسطورية التي تشبه حُقّات البخور . وفي مُلتقَى الأصابع مدارٌ فارغٌ لقناع ضخم تثقبه الظلال كمثل شبكةِ الرّامِز . «آه! أَحْسَنَّا ظننا كثيراً بالقناع والكتابة! »

نزلنَ ، بأصواتهن الذكوريّة ، سلالم المرفأ المُرتَّة . يأخذن الى حافة البحر انعكاساتهن الجدرانية العالية وثيابهن الاسبيداجية . وفيما كُنّ يدسن الحجر المرصع بنجوم الأرصفة والمنحدرات ، كُنّ يسرن بخطواتِ لبؤاتٍ عجائز مقوّساتٍ على باب العرين...

«آه! كان تيمننا بالإنسان أفضلَ على الحجر . ونسير نحوك أخيراً ، يا بحرَ آبائنا الأسطوري!

ها هي أجسامُنا ، ها هي أفواهنا ، ها هي جباهنا العريضة ذات الفلقة العجْلية المزدوجة ، وركبنا المشكَّلة كالأوسمة ، بقياسٍ عريضٍ جداً . هل ستقبل ، أيها البحر النموذجي ، أحضاننا التي شقّقها إيناع المأساة ؟ ها هي حناجرنا الغورغونية ، وقلوبنا الذّئبيّة تحت المِسْح وحلماتنا السوداء لأَجْل الجمهور ، مرضعات شعبٍ من الأطفال ـ الملوك . أينبغي ونحن نرفع المِسْحَ المسرحي على ترس البطن المقدس ، أن ننتج قناع العضو الجنسيّ الكثيف الشّعر

«كرأس الغريبة المقطوع ، أو الساحرة ، في قبضة البطل ، تتدلى خصل شعره الأسود على السيف المجنون ؟ »

*

«بلى ، كان وقتاً طويلاً من اليباس والانتظار ، حيث ترصّدَنا الموتُ في مساقط الكتابة كلها . وكان الملل كبيراً ، بين أقمشتنا المرسومة ، وكان تقزّزنا من الأثر الممجد كبيراً جداً وراء أقنعتنا!

«ملاعبنا الحجرية شهدت خطوة الإنسان تتقلص على المسرح . أكيد أن موائدنا الخشبية المذهَّبة كانت مزينة بجميع فواكه العصر ، وخِوانَاتُنا الأمامية مليئة بخمور الرِّعاية . لكن الشفة الإلهية كانت تشرد على كؤوس أخرى ، والبحر يتراجع بلا توقف من بين أحلام الشاعر .

«هل سينازعنا البحر ذو الملح البنفسجي على فتيات المجد الشامخات ؟ أين كتابتنا ، أين قاعدتنا ؟... وفي أي كتاب للطغاة يتوجب علينا البحث عن ضمانة من نُدَمائِنا الكبار ، لكي نُواجِهَ أعباء المسرح ؟

«دائماً كانت وراء الجمهور الشاطئيّ ، هذه الشكوى الصافية لحلم آخر ـ هذا الحلم الأعظم بفنّ آخر ، هذا الحلم الأعظم بعملٍ آخر ، وهذا الصعود الدائم للقناع الأكبر في أفق البشر ، أيها البحر الحي لِلنصِّ الأعظم! كنتَ تُحدثنا عن خمر ثانية للبشر ، ومرّ فجأة على نصوصنا المرذولة عَرَدُ الشفاه ، الذي يولده كل اشمئزاز ،

«ونعرف الآن ما كان يمنعنا من الحياة بين أشعارنا» .

*

«نناديك ، أيها الجزْر! سنرصد ، أيها التموج الغريب ، مجراك الشريد في العالم ، وَلئِن توجب علينا أن نكون أكثر جدّة ، وأكثرَ حرية ، لاستقبالك ، فسوف نُعرّي أمام البحر كلَّ عتاد وكلَّ ذاكرة .

«يا بحر ، يا مرضع الفن الأعظم ، نُقدّم إليك أجسادنا المغسولة في الخمور القوية ، خمور المأساة والجمهور . نضع أمامَ البحر ، كما في مَدْخلِ الهياكل ، عدتّنا المسرحية ، وأزياء الحلبة ، التنكّرية . ومثل بنات الدّعَّاكين في أعياد كبيرة ثلاث مرّاتٍ في السّنة ـ أو الفتيات اللائي يمزجن بالعصا اللون الأمّ في الأحواض ، والحمراوات حتى الكاذة اللائي يعصرن ، وهن عاريات ، العناقيد في الدنان ـ يعرضن في الشارع العام أدواتهن المصنوعة من الخشب الفقير ، نحتفلُ بأدواتِ عملنا القديمة . أقنعتنا ومزاريقَنا ، نضع تيجاننا وصوالجنا ، ومزاميرنا الكبيرة من

الخشب الأسود ، كمقارع الساحرات ـ نضع كذلك أسلحَتنا وكناناتِنا وزرودنا ، قمصاننا وجزائز أدوارنا الكبيرة ، خوذنا الجميلة بريشِها الوردي وكسوةَ رأسنا من المعسكرات البربرية بِقَرْنِها المعدني المزدوج ، تروسَنا الضخمة كأثداء الآلهات ، نضعُها ، نَضَعُها ،!... لك ، أيها البحر الغريب ، أمشاطنا الكبيرة الاحتفالية ، كأنها أنوالُ حائكات ، ومرايانا الفضية المطرَّقة كَصَنَّاجات المريدة ، حِلِيَّ أكتافِنا الكبيرة كقرون الأيائل ، أبازيمنا الكبيرة المثقبة ودبابيسنا الزواجية .

«كذلك نضع براقعنا ، ألبستنا الصوفية الملونة بدم القتل ، حريرَنا المصبوغ بخمر البلاط ، وعصينا التي تشبه عصي الشحاذات ، وعكاكيزنا التي تشبه عكاكيز المتوسلات ـ مع مصباح الأرامل ومغزلهن ، وساعة حراسنا المائية ، وقنديل الراصد المقرّن ، والجمجمة الحيوانيّة المصنوعة مزهراً ، ونسورنا الكبيرة المزيّنة بالذّهب ، وأسلاباً أخرى للعرش والمخدع ـ مع الكأس وقارورة النذور ، الإبريق وحوض النحاس لوضوء الضيف وانعاش الغريب ، آنية السمّ وقواريره ، الصناديق الملونة للساحرة وهدايا السفارة ، الأغماد الذهبية للرسالة وشهادات الأمير المتنكر ـ مع مجذاف الغرق والشّراع الأسود للفأل ومشاعل التضحية مع الشعار الملكي كذلك ، ومراوح النصر ، وأبواق مبشراتنا المصنوعة من الجلد الأحمر... الجهاز المتداعي للمأساة والأسطورة كله... نضعه! نضعه!

«لكن نحتفظ ، أيها البحر الموعود! مع قباقيبنا الخشبية الصلدة ، بحلقاتنا الذهبية الملفوفة على معاصمنا نحن العاشقات ، من أجل تفعيل الأعمال المقبلة ، الأعمال العظيمة الآتية ، في نبضها الجديد وتحريضها الآتي من أمكنةٍ أخرى» .

*

«الفقر! الفقر!... نبتهل أن نُعطىَ أمامَ البحر وعداً بالأعمال الجديدة : الأعمال الجميلة الرّاسخة ، التي لا تكون إلا صنيعاً حياً وإلاّ صنيعاً جميلاً ـ الأعمال العظيمة العاصية ، الأعمال العظيمة الفاجرة ، المفتوحة على كل قَنْصٍ للإنسان ، والتي تخلق لنا من جديد... طعمَ أن نحيا الإنسان ، في تفرّده ، في خطوة الإنسان الكبرى على الحجر .

«أعمالٌ عظيمة جداً حيث لا يُعرف نوعها ، في الحلبة ، ولا أصلُها... آه! ليفاجئنا أيضاً أسلوبٌ عظيم في سنواتنا هذه ، سنوات البِلَى ، وليجئنا من البحر ، ليجئنا من أبعد أبعاده ، آه! ولْيَرْبطنا إيقاعٌ رحبٌ بهذه الرواية العُظمَى عن الأشياء في العالم ، وراء كل شيءٍ من هذا العالم ، وَلْيَنْهَضْ فينا نَفَسٌ أكثر اتّساعاً ، يكون لنا كالبحر ذاته وكمثل نَفَسِ الغريب!

«لا نعرفُ على حدودنا إيقاعات أكثر اتساعاً . علمينا ،

أيتها القوة ، الشعر الأكبر للنظام الأكبر ، علّمنا نبرة الفنّ الأكبر ، أيها البحر النموذجيّ للكتابة العظمى! علمنا المقام الأكبر ، وَلْيُمنَح لنا أخيراً الإيقاع الذي يفتح لنا ، فوق صوّان المأساة الأحمر ، الساعةَ التي تتدلّه بها!... من سَيستَأنِفُ لنا في حركة المياه الأميرة ، الجملة الكبيرة المأخوذة من الشعب ؟

«خواصرنا التي يعلّمها التموج ، أخذت تتحرك هذه الحركة البعيدة التي يتحركها الجمهور وتتآلف معها . لِنُنَادَ كذلك على الحجر بخطواتِنا نحن النساء التراجيديات! ولْنُوَجِّه كذلك صوب البحر ، على القوس الكبيرة للحجر العاري ، بوترها ـ المسرح ، وَلْتوضع في أيدينا ، من أجل عظمة الإنسان على المسرح ، هذه النصوص العظيمة التي نقرؤها : مزروعةً بالبروق ، مُنذَرَةً بالعواصف ، كأنها مشتعلة بالقرّاص البحريّ ، ورئات البحر القارصة ، حيث تجري مع نيران اللجة اعترافات الحلم الكبيرة واغتصابات الروح . هناك يصفرُ أخطبوط اللذة ، هناك تلمع شرارة الشقاء كالملح البنفسجيّ لبحرٍ بلهبٍ أخضر يصعد من نيران الحطام... أعطينا أن نقرأكِ ، أيّتها المواعيد ، فوق عتباتٍ أكثر حرية ، وسوف تُفاجِئُنا العبارات الكبيرة للمأساويّ ، في ذهب المساء المقدس ، فوق الجمهور ،

«كما عبر جدار الحجر ، على الصفحة العالية الممتدة من

السماء والبحر ، هذه القوافل الطويلة من السفن المسافرة التي تجتاز فجأة أطراف الرؤوس البحريّة ، في أثناء تطور المأساة على المسرح...»

*

«آه! كان صراخنا صراخ **عاشقات**! لكن نحن ، **الخادمات** ، من إذن سيزورنا في غرفنا الحجرية ، بين المصباح المستأجَر والمشجب الحديدي لناتفةِ الشعر؟ أين نَصُّنا؟ أين قاعدتُنا؟ وَمَنِ السيد الذي سَيرفَعُنا من السقوط؟ أين إذن هذا **الذي** ـ آهِ ، ما أَبْطأَ الوقت! ـ يعرف أن يأخذَنا ويرفعنا ، ونحن نتهامس ، إلى مفارق المأساة كأغصان شجرةٍ عظيمة في أبواب المعابد؟

«آه! ليأت **الذي** ـ هل سيجيئنا من البحر أو من **الجُزُر**؟ ـ سيبقينا تحت سلطانه! لِيأخذْنا ، في حيويتنا ، أو لنأخُذْهُ!... **رجل** جديدُ الطلعة ، لا يبالي بقدرته ولا يهتم بولادته : عيناه لاتزالان تلتهبان مِنْ ذُبابَاتِ ليله القرمزية... وليجمعْ في أعنتهِ هذا المجرَى العظيم المبعثَر للأشياء التائهة في العصر!

«بهذا التشنج الخفي لعُقابٍ في خواصرنا ، نعرف الاقتراب

المستبدَ ـ مثلما ، في تغضن النَّسَم على المياه ، كحَردِ خفي لعبقري يشم في البعيد أثر آلهته ، يتفتّحُ

«البحرُ ، بنصِّهِ ، جديداً على كتبه الحجرية الكبيرة . ولم نَتيمَّنْ كثيراً بحظوظ الكتابة! أَصْغ ، يا رجل الآلهة ، الى خطوة العصر في سيره الى الحلبة . ـ نحن ، الفتيات العاليات المزعفرات في مجالس الليل الدامية ، الملوَّنات بنيران المساء حتى أعصاب أظافرنا ، سنرفع الى أعلى سواعدنا الكريمة صوب البحر!...

«نلتمس نعمةً جديدة لتجديد المأساة وعظمة الإنسان على الحجر» .

IV

النبيلات كذلك على الشّرُفات ...

النبيلات كذلك على الشّرفات ، مثقلات السواعد بالقصَب الأسود :

« ...كتبنا مقروءة ، أحلامنا مغلقة ، أكَانَ هذا كل شيء ؟ إذن ، أين الحَظُّ ، أين المخرج ، إذن ؟ متى افتقدْنا الشيءَ ، وما العتَبةُ التي لم نطأها ؟

« أيتها النبالة ، كنتِ تكذبين ؛ أيتها الولادة ، كنتِ تخونين! أيها الضحك ، يا صقراً ذهبياً في بساتيننا المحروقة!... الريح ترفع في منتزهات الصيد الريشة الميتة لاسمٍ كبير .

« كانت الوردة ذات مساء بلا عطر ، والعربة مقروءة في مكاسر الحجر الطريّة ، والكآبة تفتح فمَها في فم الرّخام . (آخر شادٍ في عريشنا الذهبيّ ، الأسود الذي ينحر أشبالنا وسيطلق هذا المساء فراخنا الآسيوية) .

«لكن البحر كان هناك ، ولا أحدٌ سمّاه لنا . وما أكثر التموجات التي كانت تتمدّد على درجات أرزنا!... أَيُمكن ، أيُمكن مع عمر البحر كله في نظراتنا النّسائية ، مع كوكب البحر كله في حريرنا المسائيّ

« واعتراف البحر كله في أعمق سرائر أجسامنا ـ أيُمكنُ يابصيرة ، أنْ يعتقدوا أنهم يَستَبْقوننا هذا الزمن الطويل وراء الشربين ومشاعل البَلاط وهذه الألواح المنحوتة من الأرز أو السندروس ، بين هذه الأوراق التي تُحرق ؟...

«ذات مساء من الضّوضاء الغريبة في تخومِنا العِيديّة ، حين كان الشرَّفُ يَهجر الجباهَ الأكثرَ مجداً ، خرجنا وحيداتٍ من هذه الجهة من المساء والشّرفات حيث كنا نصغي الى البحر يكبرُ على تخومنا الحجرية .

« وفيما كنا نسير نحو هذا الحي الكبير للنسيان ، مثلما نسير في أسفل حدائقنا نحو الحوض الحجري والممرات المرصوفة بالبُرَك الراكدة حيث يُرشى سيد الاسطبلات ، بحثنا عن الأبواب والمخرج .

وها نحن فجأة في هذه الجهة من المساء ومن الأرض حيث نسمع البحر يتنامى في تخومه البحرية... »

*

«بحجارتنا المتلألئة وجواهرنا الليلية ، وحيدات ونصف عاريات في ثيابنا الولائمية ، تقدمنا حتى طُرق البحر البيضاء . هناك ، نحن الأرضيّات ،

«سحبنا الدالية القصوى لأحلامنا حتى نقطة الفسخ ، واتكأنا على رخام البحر القاتم ، كما على موائد الحمم السوداء المرصعة بالنحاس حيث تتوجه الإشارات .

«على عتبة النظام الكبير ، حيث يحتفل الأعمى ، غطينا وجوهنا بحلم آبائنا . وتذكرنا كما يمكن تذكر بلدٍ مقبل ،

«مسقط رأسنا حيث لا ولادة لنا ، وتذكرنا المكان الملكي حيث لا جلوس لنا ،

«ومنذ ذلك الوقت ندخل في الأعياد ، كأن جباهنا متوجة بأكواز الصنوبر الأسود » .

*

«ارتعشي ، يا أم البشائر ، حتى في غلالاتنا الزّواجيّة! أيها البحر العنيدُ تحت الحجاب ، أيها البحر المقلَّد لنساء يلدن ، فوق أسرتهن العالية العِشْقيّة أو الزّواجيّة!... الكراهية التي تنظم علاقاتنا لن تحولَ بيننا وبين الحب . فلتلِد الماشية مسوخاً فيما ترى إلى

قناعك! نحن من طبقةٍ أخرى ، ومن الطبقات التي تتحدث مع حجر المأساة المرفوع : نستطيع أن نتأمل الرعب والعنف دون أن نضرج بناتنا بالقبح .

«قلقاتٍ ، نحبك لأنك هذا المعسكَرُ الملوكيّ ، حيث تركض كلبات الشقاء البيض ، ورؤوسهنَّ مُغَطّاة بالذهب . نهماتٍ ، نحسدك على هذا الحقل من الخشخاش الأسود حيث يُرْسي البرق . ونتحرك نحوك بهيام لا خجل فيه ، وفي الحلم نَحْبلُ منك .

«ها انك لم تعد لنا صورة جدارية أو تطريز هيكل ، بل صرت في مَسيرة ورقتك كما في مسيرة شعبك ، وردة اتّحادٍ كبيرة وشجرة مرتبية كبيرة جداً ـ كشجرة استغفار كبيرة في تقاطع طرق الغزو ،

«حيث يتأرجح الطفل الميت مع المطَرَات الذهبيّة ومزق السيوف أو الصولجانات ، بين تماثيل الصّلْصَال الأسود ، والشعر المجدول ؛ بالقشّ وبين الأمشاط الكبيرة من المرجان الأحمر ، فيما يمزج القربان الضريبي بغنيمة العدو .

«آخرون رأوا وجهك الظهيري ، حيث لمعت فجأة جلالة السلف الرهيبة . والمحارب الذي سيموت يتغطى في الحلم بأسلحتك ، وفمه مليء بالعنب الأسود . وبريقك البحري في حرير السيف وفي عماوة النهار ،

«وطعمك البحري في خبز المسح ، وفي جسد النساء اللائي يُمسحن . «ستفتح لي سِجلاّت سلالتكَ الملكية» ، يقول البطل الباحث عن الشرعية . والحزين الصاعد في البحر : «آخذ منه أوراق هويتي .»

«حميدٌ كذلك وجهك الغريب ، في الحليب الأول للنهار ـ الصباح المثلج بعروق لؤلؤ أخضر ـ حين يسلمنا مفترق التاريخ على الدروب الشطآنية التي يتبعها رحيل الملوك ، بين رأسين ، الى هذه المجابهة الخرساء للمياه الحرة .

«(القطيعة! قطيعة العين الأرضية والكلمة المقولة ، بين رأسين ، عن أَجْر اللآلىء ، وأسفارنا الفاجعة بثياب تطرزها الفضة... مراكب تعبر بين السماء والبحر ، نخبة من الرخام الكبير ، عالية الجناح ، وتوابعها من البرونز الأسود ؛

آه! حمولةٌ من الصّحون الذهبية ، بِخَتْم آبائنا ، وكثيرٌ من الأنواع النّقدّية ، بإشارة الحوذي أو التّوْنَا .)»

*

«هكذا نستسلم أرضيّات ، شاطئيات ، متواطئات... وإذا كان علينا أن نصعّد إهانةَ كونِنا وُلِدْنا ، فلتنفتح لنا ، بقوة الجمهور ، حتى المرفأ ، مداخلُ الدروب التي لم تُروَّض .

«سنعاشر هذا المساء ملح المأساة العتيق ، البحر الذي يغير لغته الدارجة عند أبواب الامبراطوريات ، وهذا البحر الذي يسهر على أبوابٍ أخرى ، وذلك الذي يسهر فينا ويبقينا في الدهشة!

«مجدٌ وبحر! انشقاق العظماء! يالَلتمزّق الذي يسطع في اعوجاج العصر... هل مخلبك لايزال في خاصرتنا ؟ قرأناكَ ، يا رقم الآلهة! سنتبعك ، أيها الأثر الملكي! أيها الرتبة المثلثة من الزبد المزهر ودخان المسح على المياه ،

«كما هي على سطح الملوك ، وعلى المرتفعات الهلالية المرسومة بخطوطٍ بيضاء كبيرة ، بعلامات سحر ، الرتبة المثلثة من الصبَّار المزهر وانفجار سواري الرماح العريقة في احتفالات ما قبل المساء!...»

V

لغةٌ كانتها الشاعرة ...

لغة كانتها الشاعرة :

«أيتها المرارة ، أيتها النعمة! أين يحترق العطر ؟... تتجه إليك أخيراً ، وقد غُرِستْ بذرة الخشخاش ، يا بَحْرَ الحي الذي لا ينام . أنت لنا شيءٌ لا ينام ، وخطر كالسّفاح تحت الغطاء . ونقول ، رأيناه : البحر ذو النساء الأكثر جمالاً من المحنة . ولم نعد نعرف ما يُعظِّم ويمدح إلاّك ،

«أيها البحر الذي يَنْتَفِخُ في أحلامنا اغتياباً بلا نهاية وشتيمةً مقدسة ، أنت يا من ترين على جدراننا الكبيرة الطفولية وشُرفاتنا كدمّل فاحش وكشرٍّ إلهي!

«القَرْح في خواصرنا خاتّمُ صِدْقٍ ، والحب في فَم الجرحِ كدم الآلهة . يا حب! يا حب الإله الذي يُشبه الذمّ ، الأظافر الكبيرة تتنزه في جسدنا الأنثويّ ، وأسراب الخواطر العابرة فوق تتابع المياه... ستقضمين ، أيتها العذوبة ،

«حتى تحشُّم الروح الذي يولد في انحناءات العنق وعلى قوس الفم المقلوبة ـ هذا المرضَ الذي يشتعل في قلوب النساء كنار الصَّبْر أو تخمة الغني بين رخامه وآنيتهِ العقيقيّة .

«ينهض فينا وقت لم نتنبأ به . ما أكثر ما انتظرنا في أسرّتنا انقلاب المشاعل الأليفة . من هذا المساء ولادتنا ، ومن هذا المساء عقيدتنا . طعم من الأرز واللبان يبقي لنا مكاننا في نعمة المدن ، لكن نكهةُ البحر على شفاهنا ،

«ومن رائحة البحر في ثيابنا ، وفي أسرّتنا ، في أعمق أعماق الليل ، يبدأ عندنا العتاب والظنّ محمولين على عرائش الأرض .

«سَفرٌ ميمونٌ لخطواتكن ، يا الآهات العَتبة والمُخدَع! أيتها الكاسياتُ ، المزينات ، الحارسات اللامرئيات ، يا من كنتنّ تجلسن وراءنا في الحفلات العامة ، رافعاتٍ في نيران البحر مراياكنّ الكبيرة الملأى بشبح المدينة ،

«أين كنتن ، ذلك المساء ، حين قطعنا روابطنا مع اسطبل السعادة ؟

«لكن أنتم الذين هناك ، يا ضيوف السقف والشرفات الإلهيّين ، يا أمراء ، يا أولياء ، يا سادة السوط ، يا سادةً لرقص خطوة الرجال عند العظماء ، وسادة الرعشة في كل شيء ـ أنتم الذين تُبقون صرخة النساء عاليةً في الليل ،

«اعملوا لكي نتذكّر ذات مساءٍ هذا كله ، من الأشياء الشامخة والواقعية والتي كانت تتلاشى ، هناك ، وكانت لنا بحريّةً ، وكانت لنا من مكان آخر ،

«بين جميع الأشياء المحرمة والأشياء التي تتجاوز الفهم...»

VI

وهذه الأنثى عند الكهّان

وهذه الأنثى عند الكهان :

«نبوءات! نبوءات! شفاه تائهة فوق البحار ، وكل ما تقيّده ، تحت الزبد ، الجملةُ الوليدة التي لا تكملها...

الإناث المقيدات في أسفل الرّؤوس البحريّة يأخذن منها رسالتهن : لِيُكَمّمْن بيننا : سيفصحن بشكل أفضل عن الإله الذي يبدّلنه... تلك الإناث المقيدات في طرف الرّؤوس البحرّية كأنَّها مَجرٌّ للعربات...

«والجزَع على المياه ، من الكلمة التي تتباطأ في أفواهنا . والبحر يغسل على الحجر عيوننا التي تلتهب من الملح . وعلى الحجرة الخنثى تكبر عينا الغريبة...»

*

«... آه! هل الكلّ لا شيء إلاّ هذا التفتح لفقاعات سعيدة تغنّي الوقت النَّهِمَ وتغنّي الوقت الأعمى ؟ وهذا البحر أيضاً هل هو البحر الذي يحفر فينا مهاويه الرملية ، ويحدثنا عن رمال أخرى ؟

«المتواطِئاتُ فوق المياه ، والمتواطِئاتُ تحت المياه ، أكثرُ عدداً مِن اللآئي يعاشرهن الشاعر في الحلم!... أيتها الوحدة ، يافيضاً! من إذن سيحرر لأجلنا أخواتنا اللامرئيات الأسيرات تحت الزبد ؟ ـ ممزوجات بالخلايا وبأزهار لها شكل الخيمة ، بضرباتِ الأجنحة الشامسة ومِزق الأجنحة المزجورة ،

«آه! فتيات كثيرات في الحديد ، آه! إناث كثيرات تحت الشكيمة وإناث كثيرات في المعصرة ـ إناث طويلات متمردات ، إناث طويلات شكسات ، يسكرنَ بخمر قصب أخضر!...»

*

«... سيتذكّر ذلك أبناؤكم ، سيتذكره أبناؤهم وبناتهم ، وسوف يتذكّرون جيلاً جديداً على الرّمالِ يُواكِبُ بعيداً خطواتِنا نحن العذارى المعصومات .

«نبوءات! نبوءات! العُقابُ المُقَلْنَس للعصر يَنْسَنُّ على سُنْباذَجِ الرؤوس البحرية . أكياس سوداءُ تَثقُل في أسفل السماء

الوحشيّة . والمطر فوق الجُزُرِ المنَوَّرة بالذّهب الشاحب يسكب فجأةً شوفانَ الرّسالة الأبيض .

«لكن أنتم ، ماذا تخشون في الرسالة ؟ ماذا تخشونَ في النّفَس على المياه ، وفي هذه الإصبع الكبريتية الشاحبة ، وهذا الطَّيران النقيّ من العصافير السوداء الصغيرة التي تُرمى في وجوهنا ، كتوابل الحلم وكملح الفَأل الأسود ؟ (قَطْرَسٌ هو الاسم ، والنّوعُ محيطيّ ، والطّيران الهائمُ كمثل طيران الفراشات اللّيلية) » .

*

« ... ثمة ، ثمة أشياء لِتُقالَ تحيّةً لعصرنا . ثمة ، في انقصاف الأشياء ، طعمُ طين يابسٍ وآنيةٍ حديدية ، مُفْرداً ضارِساً ككسرة السّيف ، سيُغري دائماً شفة الوليد الكريم الأصل .

«جائعٌ لأجلكم ، للأشياء الغريبة» : صرخة طيْرٍ بحريّ في سِفادهِ الأعلى! ولم يعد للأشياء معنى على الأرض المكشوفة للرياح... لنا قارّة البحر ، لا الأرض الزّواجية وعطرها الحُلْبِي ؛ لنا المكان الحرّ البحري ، لا هذا المنحدر للإنسان المألوف الذي أعمتهُ الكواكبُ الدّاجنة .

«وَلْتُمجّدْ اللاّئي معنا ، اللاّئي عرفنَ أن يرتفعن إلى أعلى

أعالي الصّواري ، على الشّطآن الملوّثة بالطّحالب كأنها وِجاراتٌ مهجورة ، وفي العفونة المقدّسة التي تخرج من المياه الواسعة ـ حين يميلُ نبات الرّمالِ الى حمرة الياقوت ـ ويلبس البحر لونَهُ الذّبائحيّ!...»

*

«... أشرعة فاقعة منشورة تتلألأ في أعماق السماء التي تغيّر قلوعها . والصخب فينا يهدأ تحت المِشْط الحديديّ . البحر يعلو فينا ، كما في غرف الأصداف الحجرية الكبيرة المقفرة...

«يا للبحر الذي تزداد به رماديةُ العيون النسائية : عذوبة ونَفَسٌ أكثر من بحر ، عذوبة وحلم أكثر من نَفَس ، ونعمة لأصداغنا مجلوبة من الأقاصي ، وفي استمرار الأشياء الآتية

رضابٌ مقدس ونسغٌ أبدي . والعذوبة في النشيد ، لا في النّطق ؛ في استنفادِ النّفَس ، لا في الإلقاء . وغبطة الكائن ترجّع غبطة المياه...»

*

«... بِقَدْر ما ينطبقُ جفنُ اللّه ، يبذرُ المطرُ ، في المحيط العابس ، همومه المائيّة . بقدْر ما تَتّسع السّماء في أحواض حقول

الأرزّ ، يضيئ المطر فوق المحيط . مقيّدات يقظات يطأطئن الرأس ، تحت عبء سحابةٍ رماديّة برتقاليّة بلون الذهب .

«وأحياناً يبدو البحر الهادئ ، بلونه الشيخوخيّ ، كبحرٍ ممزوجٍ بالفجر ، يتمرأى في عيون أطفالٍ ولدوا لتوّهم ؛ وكبحرٍ مزيّنٍ بالذهب ، زائغِ العين .

«أو يبدو ، لابساً الطّلع الرماديّ وكأنه مغطى برماد أيلول ، بحراً عفيفاً ينطلق عارياً ، بين رماد الفكر . ومن إذن لايزال يوشوشنا كلاماً عن المكان الحقيقي ؟...»

*

«... نصغي ، وقد نودينا بصوت منخفض ، الى الشيء الذي فينا القريب جداً والبعيد جداً ـ كهذا الهسيس البالغ النّقاء من الريح الموسمية في أعلى بوق ينبئ بتجهيز السفينة . والعذوبة في الانتظار ، لا في النّفَس ولا في النّشيد . وهذه أشياء قلّما تروى ، ونحن الوحيدات اللائي لا نكاد ندركها إلاّ لَمْحاً... خيرٌ لنا أن نصمت ، وأفواهنا مرطبة بأصداف صغيرة .

«أيها المسافرون في المياه السوداء بحثاً عن الملاذات ، أوْلى بكم أن تنطلقوا وتكبروا من أن تبنوا . الأرض ذات الأحجار المحلولة سائرة من تلقائها تتفكّك في مصبّ هذه المياه . ونحن ،

الخادمات المعتّقات ، نمضي بأقدام مزهوّة بين الرمال المتحركة .

«نتوءات ملساء من الطّين الأبيض ، الناعم ، طبقات عجراء من التراب الصّلصالي الأبيض ، الناعم ، تتقدم صوب الأرض خطواتنا نحن النساء الوسنانات . ومن بطن القدم العارية فوق هذه النُّقاعات المعتمة ـ كما من يد أعمى في ليل الإشارات المغطّاة بالثلج ـ نقتفي هناك هذه اللغة الصافية المجسمة : آثار نقية سِحائية ، نتوءات مقدّسة بفلقات من الطفولة الجنينية» .

*

«... والأمطار مضت ، لم يستنطقها أحد . وسارت قوافلُها الفَأْليّةُ ، وراء الكثبان ، تفكّ خيولها المقرونة . الرّجال المليئون بالليل يهجرون الأخاديد . حيوانات كبيرةٌ مقرونةٌ تتجه وحيدة صوب البحر .

«ولْنعنّفْ ، يا بحر ، إن لم نلتفت كذلك!... المطر المملَّح لايزال يجيئنا من المدّ . وهذا صفاء ماء أخضر على الأرض كأنما يعاش منه مرات أربعاً في السّنة .

«أيها الأطفال الذين تغطّون رؤوسكم بأعرض الأوراق المائية ، ستأخذون بيدنا أيضاً في منتصف ليل الماء الأخضر :

النبيات المعتّقات يمضين مع الأمطار ، يزرعن من جديد حقول الأرزّ...»

(وبعد! ماذا كنا نريد أن نقول ، ولم نعرف أن نقوله ؟)

VII

مساء مُرقّى بيدٍ إلهيّة ...



إنهن بَناتُنا ، ذات مساء مرقّى بيد إلهية إلى عذوبةٍ فجر بين الجزر ، ينادين ، ثلاث مرات ، بَناتِ شواطئ أخرى :

«نيراننا هذا المساء! نيراننا هذا المساء على جميع الشّواطيء!... واتّحادُنا! ـ مساء أخير!!...»

*

«أمهاتنا بنهودهن ، نهودِ إلاهاتِ القَدَرِ والموت ، على كراسيهن الأرزية ، يخشين حوافر المأساة في حدائقهن المزروعة بنباتٍ يعرّش عليه فِطْرُ العيْهوم ـ لأنهن أفرطن في حبهن ، حتى نهايات زنابيره الصفر ،

«الصيفَ الذي يفقد ذاكرته في مزارع الورد الأبيض .

«نحن ، الأكثر ضموراً في الخواصر والأكثر بروزاً في الجباه ،

السابحات المشدودات باكراً الى غارب الموج ، نقدّم إلى التموجات الآتية كتفاً أكثر نَزقاً .

«لا الصِلُّ ولا خنجر الأرامل يرقدان في سلالنا الخفية... لنا هذا الهسيس من عصر سائر ولنا جريانه البهيّ

«وصرخته البحرية الكبيرة التي لم تسمع بعد!

«العاصفة ذات العينين الزّرقاوين كزهرٍ أزرق ، لا تُذلِّ أحلامنا . وتدفق المأساة نفسها ، على خطواتنا ، لن يكون إلا فورة زبد ولساناً خشناً على كواحلنا العارية .

«فضولياتٍ نترصد ، الفرقعة الأولى للسّوط! السيف الذي يرقص على المياه ، كأنثى الأمير الموبَّخة في ساحة الشعب ،

«لا يقبض بالنسبة لنا إلاّ على جَدَلٍ حيٍّ يتطايَرُ شرراً ،

«كما في أتُونٍ متوهّجٍ لزمرّداتٍ كبيرة عريقة...

*

«من يرقص الرّقصةَ الثنائية القاعدة في الأيام السّبعة لركودِ البحر ، ستخمد همّته ذات مساء في الزّمن الواهن لِلرّقص ويستولي عليه النُفور فجأةً ،

«إذا لم تدخل الجوقة الضَخمة

«كالبحر نفسه مُوَقِّعاً حقلَ تموّجه ـ تموّج الأوثان المترنّحة في خطوة الأقنعة القَرْناء .

«غداً ، ننتعلُ مداساتِ المأساة ، ونواجه ، دون حِليً ، خَرْوعَ الطّريق ، الكبير ؛ لكن هذا المساء ،

«نهبطُ ، بأقدامٍ عاريةٍ في خُفّ الطفولة ،

«الوادي الطفوليَّ الأخير ، صوب البحر ،

«في مسالك العوسج حيث تَتلاقى النّدائفُ الشّائخةُ مِنَ الزّبد الأصفر ، راعشةً ، مع ريش الحضانةِ الشائخة وزغبها .

«الصّداقة! الصّداقة لجميع اللآئي كُنّاهنّ . مع الزّبد والجناح وتمزّق الجناح على المياه ، مع فَوَرانِ الملح ، وهذا الضحك العظيم لخالداتٍ في عراك المياه ،

«ونحن أنفسنا ، السّابحات وسط الرّداء الواسع

«من الرّيش الأبيض!... والشبكة الخضراء الواسعة كلّها ، وهذه المذاري الذهبية كلّها ، التي تُذرّي ، تحت المياه ، عصراً من العَنْبر والذّهب...

*

«ذات مساءٍ بلون العنصل وزهرة الجَرب ، حين ترفع اليمامة الخضراء في الصّخور الشّاطئيّة على تخومنا أنينَها السَّعيد كأنين مِزْمار الماء ـ إذ لم تعد النّبتةُ الرّمادية البحريّة ورقةً نخشاها وإذ طائِرُ المدّ يخفي صرخته عنّا ـ

«ذات مساء أكثر فتوراً على الجبين من زنانيرنا المفكوكة ، حين يهدأ العواء البعيد لإلاهات القَدر والموت في جَوْفِ التّلال ـ إذ لم تعد كليليا سُمْنَة الحدائق المغنّية الأسطورة التي نخشاها وإذ البحر لنا هناك بالولادة ـ

«قلنا الوقتَ أكثر جمالاً من الوقت الذي حَبلت فيه أمّهاتنا بالإناث الأكثر جمالاً . الجَسدُ هذا المساء بلا شائبة . ووضوءُ السّماء يغسلنا ، كما من خِضاب... ها أنتَ ، يا حبّ! ولا خَطأ!

«من لم يُحبَّ نهاراً ، سيحبّ هٰذا المساء . ومن يُولد هذا المساء ، سنتمسّك به شريكاً الى الأبد . النّساء ينادين في المساء . الأبواب تتفتّح على البحر . والقاعات الكبيرة المنزوية تتدفّأ بمشاعل الغروب .

«افتحن ، افتحن لريح البحر جرارنا من الأعشاب العطرية! النباتات الموبّرة تزكو على الرؤوس البحرية وفي رُكامِ الأصداف الصغيرة . القرود الزرقاء تهبط الصخور الحمراء ، ملقّمة بتينٍ

شائك . والرجل الذي كان ينحت حُقاً قُرْبانياً من الصوّان يقدم للبحر الملتهب قربانه .

«هناك عالياً ، حيث النداء ، الأصوات الصافية للنساء على العَتبات ـ مساءً أخيراً! ـ وثيابنا الشفّافة في الأسرّة التي يزورها النسيم . عالياً ، تمضي الخادمات يتهوّين وغاسلات ملابسنا الداخلية ينهمكن بغلالاتنا النسائية الليلية .

«ونضارة القماش على الموائد ، والآنية الفضية للمساء الأخير أُخرجت من صناديق السّفر... غرفنا المفتوحة على البحر ، يغوص فيها مساءٌ ذراعٌ وثنيّ . وفي الهياكل دون قُداساتٍ حيث ترتّب شمس الموتى حزم عيدانها الذهبية ، تتوقف البغلات المغبرات تحت قناطر البهو .

*

«... وهذا هو الوقت ، أيتها النابضات بالحياة! حيث يقدم النسيم البحري حظّه الى آخر نَفَسٍ للأرض . الشجرة المختّمة كالعبد تفتح أوراقَها المصطخبة . ضيوفنا يتيهون في المنحدرات بحثاً عن دروبٍ صوب البحر ، والنساء يَتِهن بَحْثاً عن الخزامى ، ونحن أنفسنا مغسولات في وضوء المساء... لا تهديد في جبين المساء ، غير هذه السماء البحرية الكبيرة البيضاء كالبومةِ

البيضاء . قمر نعناع في الشرق . نجمة حمراء في أسفل السماء ، كَفَحْلِ الخيل ، الذي تذوّق الملح . ورجل البحر في أحلامنا . تعال ، يا أفضل الرجال ، وتزوّد!...»

VIII

أيها الغريب ، يا من شراعه...

أيها الغريب ، يا من شراعه حاذى طويلاً شواطئَنا ، (ويُسْمَعُ أحياناً في اللّيل صريرُ بكَرَاتِه) .

هل ستقول لنا ما بَليّتكَ ومن يدفعك ، في أكثر المساءات دِفئاً ، لكي تهبط بيننا على الأرض الأليفة ؟

*

«في خلجان الرّخام الأسود التي تخدّدها حِضانات بيضاء

«كان الشراع ملحاً ، والمخلب خفيفاً . أكانت لنا حلماً تلك السّماء الواسعة كلّها ؟

«حَرْشَفٌ ، حرشَفٌ نديٌ مأخوذٌ مِن قناعٍ إلهيَ

«والبسمة بعيداً على ماء الجذام الكبير المحظور...

«أكثر حرّيّةٌ من الريشة في انفصالِها عن الجناح ،

«أكثر حريّةً من الحبّ في هروب المساء ،

«تلمح ظلّك ، فوق الماء الناضج ، بريئاً من عصره

«وتترك المرساة تعلن حقّها في القصيدة البحريّة...

«ريشةٌ بيضاء في الماء الأسود ، ريشةٌ بيضاء في اتّجاه المجد

«سبّبت لنا فجأةً هذا الألم الكبير ، لأنّها بيضاء الى هذا الحدّ ولأنها كذلك ، قبل المساء...

«هل الرّيش التائه في الماء الأسود ، غنائم الأقوى ،

«سيقول لك ، أيها المساء ، مَن المكتملُ هناك ؟

«كانت الرّيح تحمل المشارف وتسافر طويلاً مع طَعْم القَوْفَلِ والمواقد المطفأة .

«كانت السّيدات الشهيرات ، في الرؤوس البحرية ، يفتحن لنيران المساء أنفاً مثقّباً بالذهب .

«وكان البحر لايزال عَذْباً في خطوة العظَمة .

«هل ستُمدّ لنا أيضاً يدُ القدَر الحجرية ؟...

«إنها الشُّمْرة البحريّة التي كانت تنضج على سواحلكنّ الرمليّة

«طعماً جسديّاً لايزال بين جميع الأجساد السّعيدة ،

«والأرض المهتوفة على شواطئها المسَامِّية ، بين العَوْسَج النّهمِ وورود الذَّهب المتوهّجة

«كانت لنا شيئاً خفياً وشيئاً أغلى

«من غلائل المرأة في الحلم ، من غلائل الرّوح في الحلم» .

IX

ضيقةٌ هي المراكب ...

أيُها الأحبّاء ، أيها الآتون بعد الأوان بين الرّخام والبرونز في تطاول نيران المساء الأولى ،

أيها الأحبّاء ، يا من رانَ عليكم الصّمتُ وسطَ الجموع الغريبة ، ستشهدون كذلك هذا المساء لمجد البحر :

I

... ضيِّقةٌ هي المراكب ضيِّق سريرنا .
لا حدَّ لامتداد المياه ، وأكثر اتساعاً مملكتنا
ذات الغرف الشّهويّة المغلقة .

لِيدخلِ الصيفُ الآتي من البحر . للبحر وحده سنقول
كم كنا غرباء في أعياد المدينة ، وأي كوكب صاعد من
أعراسٍ تحت البحر ،
أقبل ذات مساء ، إلى سريرنا ، يشمّ سرير الإلهي .

عبثاً ترسم لنا الأرض القريبة حدودها . موجة واحدة من
العالم ، الموجة ذاتها منذ طروادة

تدحرجُ إلينا خاصرتها . بعيداً عنا في المدى الأرحب كانَ
هذا النَّفَسُ ، من قديمٍ ، مطبوعاً .

وكانت الضوضاء ذات مساء عالية في الغرف : لم يكن الموت ذاته ، يُسْمَعُ في خشخشة الأبواق الصّدَفيّة!

أَحبّوا ، أيها الأزواج ، المراكبَ ، والبحر مدٌّ في الغرف!

الأرض ذات مساء تبكي آلهتها ، والإنسان يطارد حيوانات شقراء ؛ المدن تبيد ، النساء يحلمن... أن كان دائماً على بابنا

هذا الفجر الكبير المُسَمَّى بحراً ـ منتقىً من الأجنحة محضوناً بالأسلحة ، حُبّاً وبحراً لسرير واحد ، حبّاً وبحراً في سرير واحد ـ

وهذا الحوار المتواصِلُ في الغرف :

II

١ ـ

«يا حب ، يا حبّ يا من تحتضن عالياً صرخة ولادتي ، التي هي من البحر السائر صوب الحبيبة! يا داليةً توطأ فوق تلال الرمل كلها ، ونعمةً من الزبد في كل جسد ، ويا نشيد الحبَبِ فوق الرمال... التحيّة ، التحيّة للمرح الإلهي!

«أنت الرجل المتلهف ، تعرّيني : يا رُبّاناً أكثر هدوءاً من الرُّبَّان في سفينته . ما من امرأة لا يُرضى عنها ، مادام ثمة نسيج يُنشر . الصيف الذي يحيا من البحر ، يبتدئ . وقلبي يكاشفك يا امْرأةً أكثر طراوةً من الماء الأخضر : بذرة العذوبة ونسغها ، الحامض الممزوج بالحليب ، الملح مع الدم المشتعل ، والذهب واليود ، وطعم النحاس أيضاً وكنهُ مرارته ـ البحر كلّه فيّ محمولاً كأنّيَ جرّة الأمومة...

«وعلى رمل جسدي تمدّد الرجل المولود من البحر . فليرطِّب وجهه من رأس الينبوع تحت الرمال ؛ وليغتبط على بيدري كالله الموشّم بالخنشار الفحل... أظامئٌ أنت يا حبّي ؟ أنا امرأة أكثر جدة من الظمأ على شفتيك . ووجهي بين يديك كأنه بين أيدي الغرق الطّريّة ، آه! ليكن وَجهي لك في الليل الحارّ غضارةَ لوز وطعمَ فجر ، ومعرفةً أولى للثمرة على الشاطئ الغريب .

«حلمت ، ذلك المساء ، بجزر أكثر اخضراراً من الحلم... ويهبط البحارة الى الشاطئ بحثاً عن ماء أزرق ؛ يلمحون ـ انه الجزْر ـ سرير الرمال المنسابة المصنوع من جديد : يترك فيه البحر الشجري ، آثاراً نقية بدقة الشَّعر ، تغوصُ كنخلات باسقة صرعى ، كَفتياتٍ طويلاتٍ منتشياتٍ ينوّمهن باكياتٍ في تنانيرهن وبين جدائلهن المحلولة .

«وتلك هي صور الحلم . لكن أنت أيها الرجل ذو الجبين الأشمّ ، النائم في واقع الحلم ، تشرب رأساً من الفم المدوّر ، وتعرف كساءه القرطاجي : جسد رمانة وقلب صبّار ، تين من أفريقيا ، وثمرة من آسيا... ثمار المرأة ، يا حبي ، أكثر من ثمار بحر : تقبل مني ، أنا غير الملونة وغير المزينة ، عربون صيف البحر...»

*

ـ ٢

«... في قلب الإنسان ، الوحشة . غريب هو الرجل ، بلا شاطئ قرب المرأة الشاطئيّة . وأنا نفسي بحر لِشرقكِ ، مثلي لرملكِ الممزوج بالذهب ، فلأذهبْ أيضاً ولأتباطأ ، على شاطئكِ ، في الانتشار البطيء جداً لحلقاتك الطينيّة ـ يا امْرأة تتكون وتتهدم مع الموجة التي تبدعها...

«وأنت الأكثر طهارة أن تكوني أكثر عرياً ، المكسوّة بيديك وحدهما ، لست أبداً عذراء الأغوار السحيقة ، ولست انتصار البرونز أو الحجر الأبيض الذي يُسترد ، مع الآنية ، في عيون الشبكة ، الكبيرة المثقلة بطحالب عمال البحر ؛ بل جسد امرأة لوجهي وحرارة امرأة في شَمّي وامرأة يضيؤها عطرها كلهب النار الوردية بين الأصابع نصف المضمومة .

«وكما هو الملح في القمح ، كذلك البحر فيك ، الشيء فيك بكنهه الذي كان من البحر ، أعطاك طعم امرأة سعيدة تُزار... وجهك مُنْحَنٍ ، فمك ثمرة تؤكل ، في قرارة المركب ، في أثناء الليل . نفَسي حرٌّ على نَحْركِ . وحرٌّ هو الصّعودُ في دَرجات الرّغبة ، من كل صوب ، كما في مدّ القمر القريب وجزْره ، حين

تتفتح الأرض الأنثى للبحر الشبق اللين ، مزيّنة بالحَبب حتى في غياضها ومستنقعاتها ، والمدّ في العشب يطلق عنينه الناعوري والليل مليء بالتفتحات...

«يا حبي يا ذا الطعم البحري ، ليرعَ آخرون بعيداً عن البحر القصيدة الريفية في أعماق الأودية المغلقة ـ النعناع ، البقلَ والحندقوق ، الآلوسنَ والصعتر ـ وليتحدثْ فيها أحدهم عن نتاج النحلة وآخر عن نتاج النعجة ، والنعجة الملبّدة تقبّل الأرض في أسفل جدران اللقاح الأسود . في وقت انعقاد الخوخ وانتقاء العروات للدالية ، فككت أنا عقدة القنب التي تربطُ هيكل السفينة بمهدها الخشبي . وحبي على البحار! وحريقي على البحار!

«ضيقة هي المراكب ، ضيّقٌ هو الاتّحاد ؛ وأكثر ضيقاً قَدُّكَ ، يا جسد الحبيبة الأمين... وهل هذا الجسد ذاته إلا صورةَ مركب وشكله ؟ قاربٌ ومجذاف ومركب نذوريٌّ حتى شقّه الأوسط ؛ مروّض في شكل غاطس ، مكيّف وفقاً لتموّجاته ، طاوياً قنطرة العاج المزدوجة على هوى التموجات وليدة البحر... للذين يجمعون هياكل السفن ، في كل زمن ، هذه الطريقة في ربط الحَيْزُوم بمجموعة الحبال وأطراف المزدوجات .

«أيتها السفينة ، يا سفينتي الجميلة ، التي تستسلم لحبالها وتحمل عبء ليل الإنسان ، أنت لي سفينة تنقل الورود .

تحطمين على الماء قيد العطايا . وها نحن ، ضدّ الموت ، على طرق الأقنثا السوداء للبحر القرمزي... لا حد للفجر المُسَمَّى بَحْراً ، لا حدَّ لامتداد المياه ، وعلى الأرض المصنوعة حلماً في تخومنا البنفسجية ، التموجُ الذي ينهض من بعيد ويتتوّج باليواقيت كشعب من العشاق!

«لا اغتصابٌ أكثر علواً مما هو في سفينة الحب» .

III

١ -

«... نقيّةٌ تحتَ لسانكَ أسناني . تهيمن على قلبي وتحكم أعضائي . سيّد السّرير ، أنتَ يا حبّي ، كمثل سيّد السفينة . لينٌ مقبضُ الدفّة في قبضة الربّان ، والموجة وديعة في قوّته . وها هي أخرى ، فيّ ، تئنُّ مع عُدّة السفينة... موجةٌ واحدة في العالم ، موجة واحدة إلينا ، بعيداً جداً في العالم وعمره... وكثيرٌ من التموّج ، ومن كلّ صوب ، يصّاعَدُ ويتوالَدُ حتّى فينا...

«آه! لا تكن لي سيّداً قاسياً بالصمت والغياب : أيّها الربّان البارع ، أيها العاشق المُفرِطُ الهمّ! خُذْ ، خُذْ منّي أكثر ممّا تعْطيكَ نفسك . ألا تحبّ ، أيها العاشق ، أن تكون المعشوق أيضاً ؟... خائفةٌ ، والقلق يسكن تحت نهدي . أحياناً ، يشرد قلب الرّجل بعيداً ، وتحت قوس عينه ، كما تحت القناطر الكبيرة المنعزلة ، هذه الرّقْعةُ الكبيرة من بَحْرٍ يقف على أبواب الصّحراء...

«يا أنتَ يا مسكوناً كالبحر بأشياء بعيدةٍ عظيمة ، رأيت حواجبكَ المقرونةَ تشرئبُّ إلى أبعد من امرأة . ألن يكون لِلّيل الذي تبحر فيه جزيرته ، شاطئه ؟ من إذن فيك يتخلّى دائماً عن ذاته وينفيها ؟ ـ لكن لا ، ها أنتَ تبتسم ، ها أنت تسقط على وجهي ، مع كلّ هذه الشفافية الكبيرة من الظّلال كأنك مقبلٌ من قدَرٍ عظيمٍ يمشي على المياه (يا للبحر الذي جُنّ بغتةً من سطوع الوحل الأصفر والأخضر بين رحابه!) وكنت أنا ، نائمةً على جنبي الأيمن ، أصغي إلى خفق دمك الجوّاب قرب نحري ـ نحر امرأةٍ عارية .

«هناك أنتَ ، يا حبي ، ولا مكان لي إلاّ فيك . سأرفع صوبك نبع وجودي ، وسأفتح لك ليلَ المرأة فِيَّ ، نَيّراً أكثر من ليل الرّجل فيك ؛ وعظمة الحبّ فيّ قد تعلّمك نعمةَ أن تكون محبوباً . الإباحة آنذاك لِلُعَب الجسد! القربان ، القربان ونعمةُ الوجود! اللّيل يفتح لك امرأةً : جسمَها ، مرافئها ، شاطئها ؛ وليلها السّالف حيث ترقد كل ذاكرة . فَلْتكنْ مأوَى لِلحبّ!

«... ضيّقٌ رأسي بين يديك ، ضيق جبيني المطوّق بالحديد . ووجهي لكي يُلتهم كثمرة مما وراء البحر : المانْغا الصفراء البيضوية ، النارية اللون التي يضعها عشاق آسيا ، مساء ، قبل منتصف الليل ، على بلاط المملكة ، قرب العرش الصامت... لسانك

في فمي توحّشٌ بحري ، وطعم النحاس في فمي . وليس طعامنا في الليل طعام الظلمات ، ولا شرابنا في الليل شراب الحوض .

«ستُحكم ضَغْطَ يديكَ على معصميّ أنا العاشقة ، وسيكون معصماي بين يديك مثل معصميْ مصارعٍ تحت طوقهما الجلدي . سترفع ذراعيَّ المربوطتين الى ما وراء جبيني ؛ وسنضمّ كذلك جبهتينا ، كما لو أننا نحقق معاً أشياء عظيمة على الحلَبة ، أشياء عظيمة أمامَ البحر ، وسأكون أنا جمهورك في الحلبة ، بين حيوانات آلهتك .

«أو حبّذا تحرّر ذراعي!... ويداي طليقتان في مركبة عضلاتك : على تضاريس ظهرك ، على العقدة المتحركة لأحقائك ، تسير مركبة قوتك كعضل المياه نفسه . سأمدحكِ بيديّ ، أيتها القوة! سأمدحكِ أنت يا نبالةَ خاصرة الرّجل حاجز الكبرياء والشرف ، الذي يحتفظ ، عارياً ، بِسماتِ اللأْمَة!

«صقر اللذة يجتذب وثاقه الجلدي . الحب المقرون الحواجب ينكبُّ على فريسته . وأنا ، أيها النّهاب ، رأيت وجهك يتغير ، كما يحدث لسارقي القرابين في المعابد ، حين يسقط عليهم الغضب الإلهي... أنت الرب مضيفنا ، ونحن نعبر سبيلنا ، يا سلّور اللذة الشبق ، صعِّد فينا سيل المياه . على لساني درهم النحاس ، البحر يشتعل في الهياكل ، والحب يهدر في المحارات كسلطانٍ في مجالس الحكم .

«يا حبّ ، يا حبّ ، أيها الوجه الغريب! من شقّ لك فينا طرقه البحرية ؟ من يُمسك الدّفة وبأية أيدٍ ؟... الى الأقنعة ، أيها الآلهة الوقتيون ، موّهوا رحيل الأساطير الكبيرة! الصيف ، المتقاطع مع الخريف ، يكسر في الرمال الملتهبة بيوضه البرونزية المرصعة بالذهب حيث يتوالد المسوخ والأبطال . وللبحر من بعيد رائحة قوية من النحاس والجسم الذكر... الاتّحادُ البحري هو حبنا الذي يصعد الى أبواب الملح الأحمر!»

*

ـ ٢

«... أنَا العاشق ، لن أرفعَ سَقْفاً للعاشقة . الصيف يصطاد بالحراب في أغوار البحر . اللذّة تَصفرُ في وكْرها . وأنا ، مثل شبكة السواحل الرملية التي تسيطر على فريستها ، غطَّيت بظلّي ، تألّقَ جسدك . قضاءٌ من السماء يربطنا! وانتهى الوقت الذي أَرفعُ فيه بين يديّ قربان نهديك ، أيها الجسَدُ المقرَّب . مكان صاعقةٍ وذهبٍ يغمرنا بمجده! أجْرٌّ من الجمر ، لا من الوَرْد... وأيّ إقليمٍ بحريّ ، تحت الورد ، اختُلِس بمهارةٍ أكثر ؟

«جسمك ، أيها الجسد الملكيّ ، يُنْضج دلائل الصّيف البحري : مبقّعٌ بالأقمار ، بالأهلّة ، مُنَقَّطٌ بالشّقرة ولون الخمرة الأرجوانية ،

موضوعٌ كالرّمل في منخل غاسلي الذهب ـ مطعّمٌ بالذهب ومُلتقَطٌ بالشّباك المثلثّة الكبيرة المضيئة التي تتسحَّب في الماء النقيّ . جسدٌ فلكيٌّ مختومٌ بخاتَمٍ إلهيّ!... من الرّقبة إلى الإبْط ، إلى ثَنايَا الساقين ، ومن الفخذ الداخليّةِ إلى حمرة الكاحلين ، سأبحث ، منخفِضَ الجبين ، عن رقم ولادتك الخفيّ ، بين الرموز المجمّعةِ لنظامك الميلاديّ ـ كهذه الأرقام الكوكبية الصاعدة ، كلّ مساء ، من صَفَحاتٍ بحرية ، لكي تنطلقَ بطيئةً ، وتَنْتَقِشَ في الغرب ، في مَدائحِ السماء .

«الصيف ، حارقُ الصّموغ والقشور ، يمزج عنبرَ المرأة بعبير الصنوبر الأسود . اسْمِرارُ المرأة وشُقْرة العنبر هما من تموز الشمِّ والعَضّ . هكذا الآلهة الذين يملكهم شرٌّ ليس أبداً شرّنا ، يُصبحون بلونِ ذهب الصّمغ في مشدّاتهم الأنثويّة . وأنتِ ، المكسوّةُ بمثل هذا الحَزّاز ، لا تعودين عارية : الخاصرة مزدانة بالذهب ، والفخذان مصقولتان كفخذي جندي إغريقي . لكَ الحمد ، أيها الجسد العظيم المحجب بلألائه ، الموسُومُ كذهب عملة الملوك الجديدة! (ومن إذن لم يحلم بأن يعري هذه السبائك الكبيرة من الذهب الشاحب ، الملبَّسة بِجلدِ أَيِّلٍ ناعم ، والتي تسافر صوب البَلاط ، في عنابر السفن ، في لفائفها القنّبية الضخمة وأربطتها الكبيرة المشبكة بنسيج الحلْفاء ؟)

«آه! كمثلِ هذه التي شربت دم شخصٍ ملكي! صفراء صفرة

الكاهنة ، متورّدة تورّد الدِّنان! تولدين موسومةً بالفحل الإلهي . وهل من جسد تلوَّح في نار الكرمة العالية ، أوصل الشهادة الى مثل هذا العلوّ ؟ رقبة أَحرَقها الحب ، شَعر سكنه الموسم اللاهب ، والإبط محموم كورد مملَّح في صحاف الخزف… أنت كخبز القربان في المذبح ، تحملين الجرح الطقوسي مدموغاً بخطٍّ أحمر… أنت وثنٌ مِن النحاس العذري ، في شكل سمكة ، تُدلّك بعسل الصخرة أو الجرف… أنت البحر ذاته صافياً ، حين يسكب ، في الظهيرة ، متفجراً قوياً ، زيت مصابيحه .

«أنت كذلك الروح المراهقة ولهفة النار الوردية في امتداد الرمال ؛ أنت العبق ، والحرارة ، ونعمة الرمل ذاتها ، ونكهته ، في أعياد ظل اللهيب . ولك رائحة الكثبان الخالدة ، وجميع الضفاف المشتركة حيث يرتعش الحلم خشخاشاً شاحباً . أنت تعجّبُ الملح ، وتكهّن الملح حين يجزر البحر بعيداً فوق صَفَحاتهِ المسامّية . أنت الحرشف ، والنار الخضراء ، وحنَش النار الخضراء ، في أسفل الحجارة المتبلّرة المصفحة بالذهب ، هنالك حيث الآس والسنديان القزَم وشجرُ الشمع في السواحل الرملية تهبط جميعاً الى نار البحر لتبحث عن بقعها النمشية…

«يا امرأةً ويا حمّى صيغت امرأة! الشفاه التي اشتَمّتْكِ لن يكونَ لها شَميمُ الموت . أيتها الحيّة ـ ومن الأكثر حياةً ؟ ـ لك

رائحة الماء الأخضر وصخر البحر ، لك رائحة العذراء وطمي البحر ، وأردافك مغسولة بنعمة أيامنا . لك رائحة الحجر المزركش بالكواكب ، ولك رائحة النحاس الذي يتدفأ بشبق المياه . أنت الحجر المتوّج بالأشنة خلف التموج ، وتعرفين الوجه الآخر لكبرى نباتات الأشنة الموشّاة بحجر الكلس . أنت الوجه المغتسل بالظلّ وأنت وداعة الصلصال الرملي . تتحركين مع الشوفان البري ومُجاج الرمال ونجيل الشواطئ الرملية الفياضة ؛ وفي تصاعد القشّ نحو البحر تتصاعد نكهتك ، وترحلين مع رحيل الرمال صوب البحر...

«أيها القلب الملكيُّ ، السّكران ، يا من دلّهه السّكرُ لأنه استضاف هذا التموّج الكثير ، بجسَدٍ أكثر حساسيةً في غَضَنِ العين... تتبع البحر الذي لا مفرّ منه ، الراسخ في صنيعه . وتحسّ العناق الذي لا يُقهر ، وتتفتّح ـ حرّاً ، غير حرّ ـ لامتداد المياه ؛ والبحرُ القَلوصُ يمتحن فيك خواتمه وأحداقه ، والنّهار يُضيِّق هذه العين الرحيبة التي تحتلّك ، واللّيل يوسّعها... سَلامٌ ، سَلامٌ لتواطؤ المياه . لا جُناحَ على روحكَ في ذلك أبداً . كمثلِ روح الله القاسِرة التي تستولي على الرجل الذي سيُولَدُ في المرأة ، وتطأ المرأة في غلالتها وأغشيتها المجزأة ، آه! كمثل البحر نفسه آكل الطحالب والبذور ، والذي يطرح لمجمع القُضاة والأمّهات جيوبَه الكبيرة المشيميّة وطحالبَه الكبيرة اللِّمْنارية ، ومحازمه الجلدية الواسعة للقابلات والكُهّان مقدّمي القرابين ، عسى أن تنضمّ اللذة

المقدسة الى ضحيتها ، ولْتُستسلِم العاشقة المتبلبلة في لفائِفها الزهرية للّيل البحريّ جسدَها المفروك الشّبيةَ بالنّبات الشفويّ الكبير! ليس على روحها جُناحٌ في ذلك...

«ياللْفَرقِ! ياللخضوع! ليتَ اللذة المقدسة تجتاحكَ ، ياموطنَها! والتهلل الغامر في الجسَد ، والمهماز في الروح هو من الجسد . رأيتُ خشخاشَ الإلاهة الأحمر يلمع بين أسنانك . الحب في البحر يحرق مراكبه . وأنت مزهوٌّ بنفسك في النزَق الإلهي ، كأنك إلهٌ خفيفٌ تحت الماء النقي ، حيث تفكّ الظلال أحزمتها الخفيفة... سلامٌ ، سَلامٌ للتنوع الإلهي! موجة واحدة من العالم ، موجة واحدة مسْرانا... ضيق هو الوَزْنُ ، ضيق هو الوَقْفُ الذي يشطر جسد المرأة نصفين كالوزن القديم... ستتّسعينَ ، يا إباحة! البحر الشبق يستحثّنا ، ورائحة أحواضه تشرد في سريرنا... وغرف اللذة حمراء بلون قُنْفذِ البحر» .

IV

١ـ

« ... نواحُ امرأةٍ على المُنْبَسطِ الرّمْليّ ، حَشْرجة امرأةٍ في الليل ليسا إلا هَديلَ عاصفةٍ هاربةٍ على المياه . يا يَمامَ العاصفة والجروف ، ويا قلباً يصطدم بالرمال ، ما أكثر البحار أيضاً في نعيم العاشقة الباكي!... ويا أنتَ الجائرُ يا مَن تَطؤنا ، مثل أفراخ السُّمانى وفيضِ الأجنحة المهاجرة ، هل ستقول لنا مَنْ يجمعُ بيننا ؟

« أيها البحر الممتزج بصوتي يا بحراً ممزوجاً فيّ دائماً ، أيها الحبُّ ، الحب ، الذي يتكلم عالياً على المَرْجان ومكاسِر الموج ، هل ستمنح النّعمةَ لجسم المرأة المولّهة ؟... نَواحُ امرأةٍ مُسْتنزَفةٍ ، نَواحُ امرأةٍ وليست جريحةً... أَطِلْ ، أيها السيد ، عذابي ؛ أَطِلْ ، أيها السيد ، نعيمي! أي حيوانٍ حنونٍ مطعونٍ ، أكثر عشقاً ، كان أشد عقاباً ؟

«امرأة أنا ، وفانية ، في كل جسدٍ حيث لا يوجد العاشق . لأجلنا تسير العَربَةُ الصُّلبةُ على المياه . لِتَطَأْنا بالحافرِ ، وَلْتُشْخِنا ضرباً بحَيْزُومِ السفينة ، ولْتصدْ منا بمقبضِ الدفة المنقَّشِ بالنحاس . والعاشقة تحضنُ العاشقَ كحشْدٍ من القُساةِ ، والعاشق يحضن العاشقة كحشْدٍ من الكواكب . وجسمي يتفتح دون احتشام لِفَحْل التَّقْديس كما يتفتح البحر نفسُه لِنَزْوة الصاعقة .

«أيها البحر الناهض في وجه الموت! ما أكثر الحب السائر في العالم للقاء عشيرتك . موجة واحدة فوق رافعته!... وأنت السيد ، ومن يقود ، تعرف كيف تُستخدم أسلحتنا . والحب وحده يوقف ، يمسك في بدايتها المهدِّدة ، الموجةَ العالية المنحنية الملساء والتي لها عُنُقُ الصِّلّ .

«لن يهدِّئ المِسخَ المنتفخَ أيُّ مزمار من آسيا ، ينتفخُ عنق يقطينه . لكن تلك التي تحتضن وحدها الخلاف المحتدم ، العاشقة المتنمرة ، والتي تتراجع وتتقوس وتتجابه... لساناً للسان ، ونفخة لنفخة ، لاهثة ، وجهها ذائب والعين يَتَأكّلها الحمض تنفخ نفخَ العاشقةِ الكاهنة...

«هل ستضربُ ، أيها القضيبُ الإلهي ؟ ـ يا حظوة المِسخ ، يالانتظاري! والجزع أكثر صريراً!... الموت المشدوفُ الرأس ،

الحب المسيَّبُ الرأس ، يقذف لسانه بتواترٍ كثير . الدائم اسمه ؛ البراءة ساعته . أَصغ للموت يحيا وأَصغ لصراخه الجدْجديّ...

«ستضربُ ، أيها الوعد! ـ جوابك ، أيها السيد ، أكثر مفاجأة ، ووعيدك أقوى . تكلم بصوت أعلى ، أيها الطّاغية! ولتهاجمني بعتوٍّ أكثر : الغضب في أَوْجهِ ! ليكن بحثكَ أبعدَ ، أيها السلّور الملكيّ : هكذا البرق في البحر يبحث عن ركيزة المركب...

«ضربْتِ ، أيتها الصاعقة الإلهية! ـ من يُذْكي فيَّ هذه الصيحة الهائلة لامرأة لم تفطم ؟ يا لَلْبهاء! يا للكآبة! ويا للمشط البديع لخالدةٍ ينضِّد الزبد المتلألئ! ولهذا الطِّفاح الذي يتهاوى نورجاً من الذهب!... ظننت أنني أعاشر المحرّم والخرافة نفسها .

«أنت ، يا ضَيْفيَ يا إلهاً ، كان هناك ، احفظ مِرْوحةَ اغتصابك حية فيَّ . وَلْيختطِفْنا كذلك هذا الصراخ الطويل المديد لروح لم يُفصَحْ عنها!... الموت المدهش الباطل يمضي ، بخطوة البهلوان ، ليمجِّد أسرّة أخرى . والبحر الغريب ، المزروع بالزبد ، يَلِدُ بعيداً على شواطئ أخرى ، جياده الاحتفالية...

«هذه الدموع ، يا حبي ، لم تكن أبداً دموع فانية .»

*

٢ـ

« ... أيتها السفينة التي تتفتح على صَالبها ، يضيئها الجمر والذهب ، يا مقصورة الغرق المتأججة! أيتها الروعة! أيتها الكآبة! عاشري الكائن ، وأسرعي! البحر لم يعد أكثر شراسة لِقَتل إلهه ...

«العَفو لهذه التي كانت هناك ، وكانت لفَتْرةٍ قصيرة ــ آه! كمثل هذه التي شربت الدّمَ في الأقداح الملكيّة ولم تعد تعرف طبقَتها ولا مرتبَتها ، لكن التي لايزال الحلم يتذكرها : «صادقتُ الموت الفاتِنَ الباطِل ، تحدّثنا نِداً لِندٍّ ، الصّاعقة التي لا وجه لها وأنا ؛ وأنا من يعرف عن البحر أكثر مما يعرف الأحياء ، أعرف كذلك الشر القديم في كُوَّتهِ الصفراويّة النّار . من حَلُمَ بالسّيف العاري الراقد في المياه النقيّة ، لم يَنْفِ من الحكاية الدموعَ والمشاعل... »

«دموعُ العاشقة ، يا من أُسيء حبُّها ، ليس لها نبعٌ في العاشق ، الكراهية للإله الحسود الذي يقطفك بين ذراعيّ! غريبةٌ هي اليد التي تعصر العنقود بين وجهينا . أنتِ المَشَاعُ ، كنتِ تخونين... العصيان ، العصيان ، أيها الحزن! معاشرة الكائن مَوْمَأة .

إذن ، هل تكلّم أحد ؟ لن يُسْمَع . ما لا يُسكَنُ هو مكانُنا ، ولا أثرَ للتحطيم . لكن إباءَ الحياة هو في الوصول ، لا في التصرّف ولا التملّك .

« ... ستنبعثين ، أيّتها الرغبة! ستقولين لنا اسمكِ الآخر ، أيتها الشهوة ، يا طريقاً ملكية ، حيث ينهض الملك سكرانَ يحرسه الأعمى! أيتها الرغبة ، الرغبة التي تتقدمنا وتؤازرنا ، أهذا هو اسمكِ الوحيد ، أوليس لك اسمٌ آخر ؟... يا أنتِ يا من تجعلين الرمل يتأوه بعيداً عند عتباتٍ غير مرئيّة ، وتجعلين اقتراب الرسالة على المياه مرئياً ، أنتِ أيّها النّذيرُ أنتِ أيّها البشير ، بحثكِ هو الأوسع ، ودروبك عديدة . تَستَريحين قليلاً أمامي . وفيما تمدّين لي سلاحك دائماً ، هل ستمدّين لي دائماً المرأة في قَوْسِها ؟

*

« أمطارُ الرغبة زاحفة ، والبرق ينشرُ فألَهُ في كلّ اتّجاه! فوق وجه المياه المتورّم امتصاصُ الله القوي . لم يعد البحر الذي يلبس قناع السَّمك العِفْريتي يتزوج حزنَ الأشياء العَميق . أيّها التشوقُ ، أيها الشّغَف ، عِشْ صنيعك!... وبحرُ الحلم ، المتجوّفُ ، يُسْلِم للمقصّ مكعّباته ومثلّثاته ، بشظايا كبيرة من الزجاج الأسود كحممٍ مُزَجَّجة!

«اهبط ، أيها النحات ، بقلبٍ كبير ـ ذلك أنّ العمل كبير ـ بين بناتِكَ وعمّالكَ وحَجّاريكَ جميعاً . تأمّل من جديدٍ نتاجكَ أيها الحلم : لا تُرسَ الصائغ ، لا المِرآة الفضية المرصَّعة حيث يسيلُ خِزْيُ الورود (الفهد داخل الكَرْمة ، العذراء رديفة الثور ، أو الدلفين المكلل بأغصان الزبَد) ،

«بل جميع هذه الضفيرة الهائلة من القوى والمحالفات ، كتلةً واحدة وسَبَجاً واحداً ، أسودَ لامعاً ، كَحِمْلٍ من الحلقات الحديدية في مخازنِ السّفن الملأى : البحر ، زَرَدُه ، عَضلاته العاصرة ، وأشداقه الملايين المُطبقَة على خاتَم الرغبة ـ أو قُلِ البحر خارجَ سيورهِ ، وفي ردائه الكبير الذي يُشبه جلدَ الفَرسِ الأسود المحزَّز بالجراح : الثّقوبِ الشّبقة الدامية!

«... عندي ، أيها الصّديقة ، قولٌ أفضل ، والآلهة مضوا : بغتةً ، رأيتُ البحرَ الهادئ ، بلون الرسوب ، البحرَ بعيداً كسلطانٍ يحلم بملكاته السّود المنقطات الجباه بالزرقة... بوجهٍ واحد ، وملمحٍ واحد ، في تقلبات موجه ، وعلى صفحاتِه الطويلة الرصاصية المُلْس ، في السكينة البعيدة لحقول الخشخاش الرمادي الأكثر جمالاً...

*

«... أيتها المرأة العالية في فيضانها كأنها أسيرةُ مجراها! سأنهض كذلك شاكي السلاح في ليلِ جسمكِ ، وأتدفق دائماً من سنواتكِ البحرية .

«الروح كذلك تضيقُ في جُرح الجسد! وأنتِ المغنية المتلعثمة على شاطئكِ الشّوكيّ ، كسيبيل المتفتحة على صَخرها كبنت إيريثري ـ أفعى هائلةً من القوة والعذوبةِ تتقيّأُ إلهها ـ ستعاشرين كذلك حقيقةَ الحلم : هذا البحر الآخر ، القريبَ والأكثر اتساعاً ، والذي لا أحدٌ يدل عليه أو يسميه .

«أكْمِل جولتكَ ، أيها الإله المُستَعار . نحن أبْدالُك . موجة واحدة في العالم ، موجة واحدة منذ طروادة... التموج يعلو ويصير امرأة . البحر الذي له أحشاء عاشقةٍ يُمسِّد بلا كَلَلٍ فريسته . والبحر يؤرجح السريرَ الأرزي فوق ألواحه ، والحب يدفعه للغناء ، كذلك يفعلان بهيكل السفينة المنحني على مفاصله . غنيٌّ فراشنا بالقرابين ، غني بذخر أعمالِنا...

«أيتها العذراء المسمّرة على ترائبي ، آه! كمثل هذه التي تُضَحَّى ، أنتِ سكْب الخمر فوق حد الحيزوم ، أنت قربان المدّ للموتى الذين يهدهدون الأحياء : سلسلة ورودٍ حمراء ، مرتخية تتفتح على المياه بعد طقوس الوداع ـ وسفن مهرِّبٍ ستقطع خيطها العطر في الليل .

«أيها الشَّغَفُ ، يا أميراً تحت القناع ، قلت لنا اسمك الآخر!... وأنت أيتها العاشقة ، لاتزالين تطلقين صفيرك العقابي ، من أجل إلهكِ . وأنت العاشقة ، ستتقوّسين كذلك فوق نَفَسِكِ من أجل مخاض الصراخ ـ حتى هذا التصويت العذب ـ حذار منه ـ وهذا المصوت الذي لا شأن له حيث يندمج الله... الخضوع ، الخضوع!... ستخضعين كذلك للسؤال!

«ومن إذن ألقاك حية منكّسة على جناحك ، كأنثى النسر فوق إبّالتها الشّوكيّة ، تستندين بظفرك الى خاصرة السائل؟ ياعوسج الحرب ، الغلابَ المستند إلى صخرته ، ترفع إلى أعلى من البحر شتيمتك ضد الموت . فَلْيَسْمَعِ الموت والحب! الولادة والموت في وَرَقٍ واحد!... فكَكْتُ البرق ، وبحثه ليس باطلاً . ستضربين ، أيتها الصاعقة الإلهية!... معاشرة الكائن ليست خديعة . وليست العاشقة مومأة . يا لَشَجرة الاغتصاب المتفرّعة التي يصعد عليها البرق...

«ـ كذلك هذه التي لها اسم تضرب في الظهيرة قلب المياه الفاتن : عشتار ، البهية العارية تهمزها البروق والصّقورُ الخضر ، في الغلالات الواسعة الخضر لنارها المتردّة... أيتها الرّوعة ، لا الكآبة! أيها الحب الذي يقطع ولا ينقض! والقلب أخيراً حرٌّ من الموت!... لقد منحتني هذا الصراخ الطويل الأنثويّ الذي يتواصَلُ على المياه .»

V

١ـ

« ... إلى جوارك ، موضوعةٌ ، كمثل المجداف في أسفل القارب ؛ قريبك ، ملفوفةٌ كمثل الشراع حول عارضة الصاري ، المربوط بأسفل السارية... مليونُ فقاعةٍ أكثر من سعيدة ، في جَريانِ السفينة وتحت صَالِبها... والبحر نفسه حلمنا ، كمثل خيمة من الزهر وحيدة فسيحة... تتناثر رؤوسها وتويجاتها .

«أيها البقاء ، الحكمة! يا طراوة عاصفةٍ تنأى ، بأجفان مثخنة ، بزرقة العاصفة... ابسطي راحتك ، يا سعادة الوجود... ومن إذن كان هناك ، ولم يعد إلا نعمة ؟ خطوةٌ تبتعد فيَّ ليست خطوة فانية . وبعيداً يرحل مسافرون لم نُنَادِهم . مُدَّ السرادق المشبع بالذهب ، أيها الظل النقي مِمّا وراءَ الحياة...

«والجناح الكبير الصامت الذي كان طويلاً كذلك ، في مؤخر سفينتنا لايزال يقود في الحلم ، لايزال يقود على المياه ، أجسادنا التي تحابَّت كثيراً ، وقلوبنا التي طالما تدلّهت... بعيداً شوط موجة أخيرة ، ترفع أعلى فأعلى قربان شكيمتها... أحبكَ ـ هناك أنت ـ ومنتهى سعادة الوجود التي استُنفِدت هناك .

«بهدوء أكثر ، انطلق إلى النهايات ، يا مجرى الأشياء . الموت يبحر في الموت ولا يأبه للحي . الليل المملح يحملنا في خواصره . ونحن ، نفك اشتباك أذرعنا لكي نصغي فينا إلى البحر يُهيمن ، بلا شواطئ ولا صخور . وَلَهٌ طاغ جداً طيّع جداً . وآلاف الجفونِ تشجّعنا...

«وتحرّكُ العاشقة أهدابها في هذا المكان الهادئ . البحر العديل يحيط بي ويفتح لي قمة نخيله . أسمع النسغ العديل المغذّى يخفق دماً ـ يا حلماً لاأزال أرضعه! وشفتي مملحة بملح ولادتك ، وجسمك مملح بملح ولادتي... هناك أنت ، يا حبي ، ولا مكان لي إلا فيك .

«سعيدةٌ أن أكونَ في تنفسك ، مثلي في كنف شراع السفينة . النسيم في الشّراع... فلأكن لك عذوبة متواصلةً ونعمة حانية على المياه : صمتاً وسهراً في سهرك ، وخفقاً في ظل أهدابك . لك جبيني الأنثوي وعطر الزوجة في ولادة الجبين ؛ ليَ هذا الخفق الدموي الشديد في مَدُوزةِ القلب الرجولي .

«نهدي الأيسبر في يدك ، خاتم مملكة خفي! أطبقي راحتك ، يا سعادة الوجود... اليد التي تحكم خاصرتي ، تحكم في البعيد وجه مملكة ، وبساطة الحب تشمل أقاليمها جميعاً . ليكن سلام المياه معنا! ولتكن معنا بعيداً ، بين الثلوج والرمال ، بوابة مملكة بحرية واسعة تغسل في الموج حيواناتها البيضاء .

«وأنا من أكون ، في غور المياه النقية ، غير رغَدٍ وقور لسعفة من زهر البحر ، تتمايل ؟ أسمع في الليل كيف يحيا الشيء الكبير الذي لا اسم له . وشوك الفزع غائب عن جسدي . حجر العتبة يعترض العتبة ، والبحر فيما وراء حجر العتبة . مغفور للموت الهرطوقي الباطل! بحر مصالَح ، قضية رابحة . والنعمة بعيداً مشتركة ، والحب متكالبٌ على ملكه .

«أنتم يا من أنقذتموني من الموت ، لكم الحمد ، يا آلهة أخياراً ، من أجل هذا الفيض كله الذي كان لنا ، ومن أجل هذا الجهد العظيم من الحب الذي تركتموه فيّ ، وهذا الصراخ البحري الكبير الذي بعثتموه فيّ . الموت الذي يغير قميصه ينطلق ليغذي بعيداً جموعه المؤمنة . البحر المزروع بالزبد يحشد بعيداً من أجلنا جياده الاحتفالية . وأنت يا من أحب ، هنالك أنت ، قلبي وجسدي اللّذين تحرّرَا من الموت...

*

«بمصاريع منخفضة ونيران منطفئة ، يبحر البيت الخشبي كمركبٍ ثلاثيّ المجاذيف ، وتحت افريز الخشب الخفيف يمتد صف العوارض الحديدية كصفٍّ من المجاذيف استوى لينطلق . نجري ، نجري في سلك ألواحنا العاجيّ... النسيم رخاءٌ في الستائر ، يتفوه باسْمٍ أكثر نداوة من آنشيز ؛ والبيت يتنفس من حواجزه القشية... يا طعم الروح الجوّابة ، سمِّ لنا الطريق التي تسلكها ، وقل لنا أية سفينة جذلى تطلقها أنت نفسك صوب الفجر . من فينا إذن يبحر وليس له مراكب في البحر ؟ ألن يكون للحياة حد ؟ ألا لا يموتنّ أحدٌ قبل أن يحب!

«نحن الذين نعبر البحار في سريرنا الذي لا صواري له ولا مجاذيف ، نعرف هذا المجرى للأشياء القَلُوبة لا غاية له . حبٌّ وبحر ودروب بَحْرِّية... القمر المنخفض يملأ الممالح والمصابيح . رأيت شفرته الشّبيهةَ بشفرة فاتحِ المحار تنزلق بين مصاريعنا . أو لعلها نجمة بيلوس التي تعشش في النخيل ، وتنديّ ليل الصيف بأفراخها من الجليد الأزرق . كانت قدمايَ آنذاك حافيتين فوق الأروقة الخشبية وعلى بلاط ما قبل العتبة... ورأيت اللّيل الأول يتفتح بكل ما فيه من زرقة اللؤلؤ الحق .

«الأرض وأيائلها السّود تتدلى في بَراح الجَزْر . والبحر يبتعد حَافيَ القدمين على الرمال . القارات المهدَّبةُ بالذهب تسافر في

هالتها . الجزُر التي كبرت ، تترك لخزانة الشواطئ الرملية نقودَها الكبيرة ، الخشبية الملساء الصقيلة ، أو الجلدية ؛ والثمار الخردلية المتفتحة قليلاً ، بأشكالٍ مخروطية ، والتي أفرغت مساكنَها وجفانها ، تبرز حواجزها البيض اليابسة كمقاعد المجذِّفين . البذور العائمة تغوص حيث تتوقف . ستنبت منها أشجار لصناعة الأبنوس .

«أيها المسْكَنُ ، يا غَلاصِمُ بين بحر الأشياء وبيني... ما يكون هذا العالم الذي لا نعرفه ، حيث نحب ، وسط هذه التموجات الغائصة ، كما على قمم الغابات المغمورة المزهرة بعد الأوان ؟... النجمة ، هذه الليلة ، مزدوجة تنتفخُ على المياه . كواكبُ عظيمة جارية تخرج من البحر كسيوفٍ حادة ، بلا مقبض ولا قائمة ، والبحر يطرح لنا سيف المصارع . كتائبُ دون أسلحة تنتشر في حدائق الحجر ، كما في الخروج من الأعياد السّلاليّة الكبرى ، حيث يزهو الفاتحون السعداء الذين يزاوجون بين الشعوب على الشواطئ .

«ستمطر قبل النهار . الليل يمزق عصاباته . وما من أحد سيقرأ ما كُتب على الرمال المنقطة . حجر العتبة يتغطى بتشجرات شاحبة وتنبؤات . الحيوانات المؤلهة تستيقظ في القوارير . الطوالع انكشفت . بحر مصالَح ، قضية رابحة . وبخارات البحر تحاصر

فوهة الأحواض ، وفي الأبنية العتيقة المتصلة برمل البحر تنتشر بقع التعفن الإلهيّ . حجارة عالية بيضاء مكوّمة يلحسها الماعز . التّعب المهاجر هاربٌ! وأحب أنا ؛ وهنالك أنت . ليس هناك طمأنينة أكبر مما هي في سفينة الحب .

« ... ها هو نسيمُ ما قبلَ المطر! أَصغِ الى ثمار النخل الصغيرة تسقط على السطح . سنجنيها في أطنافِنا ، من أجل زينة النهار ، وسأريك ، إذ يحضنها قَرْن أو عاج ، وتترصع بالقشور والأظافر ، كيف تتعمم بزي الهند... نسيم البحر في أشجار الفلفل . خمر النخيل في سعف النخيل . وهذا الصّخَبُ هو المطر... كلا ، صليل أسلحة تنقل الى مِزْود النخيل . أية روحٍ أخرى تصفق بجناحها ، بغتةً ، وأسيرةً ، في فرشنا القشية المغطاة بالخيزران ، ـ مثلما هي ، كما يُقال ، أشرعة السفن في آسيا ؟

« ... تمطر فوق الشّرفات والغِماءات المضلّعة : للقرميد آنذاك لون القَرْن وجوز الطيب ، لون الحجارة المرنة في جَوْقةٍ وسناطير . جرّةُ التراب تحت الإفريز ، سعيدة الخاصرة . ديمةُ البحر فوق البلاط وعلى حجر العتبة ؛ وفي صحون الهواء الطلق والآنية الخزفية المُبَرنقَة ذات الأقفية النوبية . فيها ستغتسل العاشقة من ليل هواها ؛ تغسل فيها أوراكها ونحرَها ووجهها ؛ فيها تغسل فخذيها

حتى الكاذة وحتى ثنية الكاذة . النجمة أيضاً ستغتسل فيها ، كزائرةٍ أخيرة تأخّر فطامُها .

« ... أمطرت ، وها هو النهار . القمر بلون حجر الشبّ . والسماء في المشرق بلون بطة الماء . نِعِمّ ، أيها القُدومُ الميمون! فجر الصيف هو ، على البحر ، الخطوة الأولى لعاشقةٍ عارية خارج غلائلها المرمية . هذا الجسد الأنثوي وليد المرأة ، من سلالة البحر ، ومن النساء جميعاً... وهذه التي صانت من أجل الليل لآلئها الطالعة من البحر ستصاهر أيضاً عصر المرجان... وربما لم تمطر : كم كان عذباً ، أيها المطر ، اقترابك... ومن كان لا يشكّ لو لم نَرَ هذا الرّسم الدّقيقَ لإشاراتٍ على الرمل ، كالرضوض الناعمة في خواصر الأمهات الفتيّات ؟

*

« صباح مغسول كالزوجة . واللون أُعيدَ إلى العالم : وسيطاً ومهيّجاً . البحر هنالك ، البحر الذي لم يعد حلماً . ليكن له الهتاف! كما تكون للبحر نفسه في الظهيرة ، تلك التي تغسل أشبالها وراء شجيرات الفلفل المزهرة... أعرف أن حشداً من المدوزات الصغيرة ، بشكل المبيض ، بشكل الرَّحِم ، كان قد ملأ ليل الخلجان الصغيرة الناشئة . وزارت عنب البحر قواضم ليلية صغيرة . وثمة أشجار كبيرة عطرة تنحني بوداعة في اتجاه البحر . وجميع الحيوانات المتطفِّلِ عليها تَتَفَرْجَنُ بألسنة البحيرات

الشاطئية . والبحر يدحرج إلينا دماه المدورة من المرجان الأبيض . الباحثون عن العنبر الرمادي ، يجوبون وحدهم الشواطئ المديدة المتجددة على جيادهم المهمْلجة . جامعو السُّمانى ينحنون صوب المغاور وفي تجاويف الشاطئ .

«تُلْتَقَطُ كذلك ، لأجل ضواحي الهياكل ولأجل الملاجئ ، طحالب صغيرة يابسة لِلأسرّة تسمى أعياد بوزيدون . وتجلس فارزات الغلْفق المزينات الرؤوس برفارف طويلة من الورق ، على مصاطب الحجر وعلى جبهات الحجر الشبيه بالمناضد . وفي أطراف الجزر ، تتآلف خطاطيف البحر مع العقعق المحاري . والصنارة الممغنطة بالسعادة تطرح فوق الرمال المغمورة سهمها الثقيل من الذهب الخالص . وثمة سمكة زرقاء ، زرقة الصائغ ، تَميلُ إلى خضرة الدهنج الذي يحبه الرُّحَّلُ الكبار ، تتجول وحيدة في الماء الحر كسفينة القربان...

«أهلاً! أهلاً! بضيوفنا جميعاً ـ يا أقرباءنا!... لتفرش للجميع السّعفة نفسُها!... وأنت يا من أحب ، هنالك أنت . ليكن سلام المياه معنا!... كذلك النّوم الذي يتفتح ، لأجل العاشقة ، في رقابة وضح النهار...

«لا طمأنينة أكبر مما هي في نوم العاشقة» .

*

٢ـ

«... أيتها الوحدة ، يا قلب الإنسان! هذه التي تنام على كتفي اليسرى ، هل تعرف من الحلم الهاويةَ كلها ؟ وحدة وظلمات للإنسان في وضح نهاره... لكن ينبوع خفي من أجل العاشقة ـ هكذا الينبوع تحت البحر حيث يتحرك ذلك القليل من الرمل والذهب...

«ستبتعدين ، أيتها الرغبة ، فلأعرفْ أيضاً هذا الجبين الأنثويّ المعرّى . المرأة عذبة في شميم الرجل ، عذبة في براثنِ الروح... يا طعم الروح الكثير التطواف ، هل ستحدثنا عن الشاطئ الذي تسلكه ، وتقول لنا ، أيها العطاء ، إن كان يلزمك هذا العنق الأنثوي الذي ينعطف إلينا ؟

«هذه التي تتضوّع في تنفّسي ، وتصفر في وجهي هذا الصفير الكثير النقاء والطفولي جداً ، تفتح لي مسلك نعمتها ، ومن شفتها الطيّعة الى جبهتها المائلة المعرّاة أكثر من امرأة ، تسلم لي وجهها المتمنِّعَ كظهر الأقمار التابعة .

«يا للوجه الأكثر عذوبة والمرصود ، بين جميع الوجوه العذبة ، للنظر... أية نعمة أخرى ، أكثر بعداً ، في العذوبة البيضوية

النقية حيث تتكاثر النعم ، تحدثنا عن امرأة أكثر من امرأة ؟ ومن أي ممن نعموا نتلقى عن المرأة نعمة الحب هذه ؟

«نكهة العذراء في العاشقة ، عطاءُ العاشقة في المرأة ، وأنت يا عطر الزوجة في ولادة الجبين ، يا امرأة مأخوذة في عبيرها وامرأة مأخوذة في كنهها ، الشفاه التي شمّتكِ لن يكون لها أبداً شميمُ الموت... فوق الفساد أنت ، أيتها النعمة ، أكثر مما هي الوردة الأسيرة في المصباح .

«وبك ، يتلألأ الذهب في الثمرة ، ويحدثنا الجسد الذي لا يفنى عن قلبه الزعفراني المورد ؛ وبك ، يحتفظ الماء الليلي بحضور الروح ونكهتها ، كما هما في الأغشية البيض ، غير المتسخة ، لنخلات فرعونية كبيرة ، في مكان انتزاعها النقي جداً ، الحريري جداً .

*

«... أنت يا من تسافرين ، في النوم ، طارحة جزءها الفاني ،

«أنت لي وعد في الشرق ، سيتحقق على البحر ، أنت لي الغرابة في شراع الحلم وورقه القضيمي ، وتتأرجحين مع الدوقل في قوس السماء الكبيرة ، بلون السَّمكِ المورد الأحمر . أو بالأحرى ، أنت لي الشراع نفسه ، ووظيفته ، ومن الشراع ،

الفكرة الصافية ـ التأمل النقي للروح على السطح الشراعي وأفق الأشرعة...

«أنتِ لي الاقتراب الصباحي وأنت لي جِدّةُ النهار ، أنت لي طراوة البحر ونداوة الفجر تحت حليب الدلو ، حين تتمرأى الغيمة الأولى في مرآة ماء الرمال ، وتهبط نجمة الصبح الخضراء ، الأميرة التي هي وقف على النهار ، عارية القدمين ، سلالمَ السماء الخضر لتزكّي الطفولة المشبوكة الجبين بالمياه...

«لي أنت شفافية زبرجد اليقظة وتوقع الحلم ، وأنت اللامرئي ذاته من الينبوع في مكان انبثاقه ، كمثلِ لامرئيِّ اللهب ذاته ، كمثل كنهه ، في المكان النقي جداً والذي لا إثم له حيث القلب الواهن لِلّهب خاتَمُ عذوبة...

«أنت آكلة التويجات الزهرية آكلة الجسد النرجسي في الشواطئ الرملية ، تذوقت الملح في راحتي العاشق وغذيته برز حقول الرز . أنت براءة الثمرة على الأرض الغريبة ؛ السنبلة المقطوفة عند البربري ؛ البذرة المنثورة على الشاطئ المقفر لرحلة العودة...

«يا امرأة مأخوذة في مجراها ، والتي تسيل بين ذراعيّ كليل الينابيع ، من إذن فيَّ ينزل في نهر ضعفك؟ ألست لي النهر ، ألست

لي البحر ؟ أو بالحريّ النهر في البحر ؟ ألست لي البحر المسافر نفسه ، حيث لا أحد وقد امتزج ، هو نفسه ، يمتزج فيه مرتين ؟

«ما أسعد الانحناء الذي ينتمي الى اللذة الخالصة للعاشقة .

*

«... هذه التي تنسكب على كتفي اليسرى وتملأ خليج ذراعي ، كباقة عطرة متقصفة ، غير معقودة (وكان ناعماً جداً ، في يدي ، تاريخ هذه الأصداغ السعيدة) ،

«هذه التي تستريح على خاصرتها اليمنى ، وجهها مغلق عليَّ (وهكذا تسافر آنية كبيرة ، على ركيزتها الخشبية اللّيّنة وعلى سرجها اللّبْدي الأبيض) ،

«هذه التي تتحرك في الحلم ضد صعود الظلال (ومددت ستاراً في وجه رشاش البحر والندى الليلي ، والشراع مُعرَّض لأنقى المياه) .

«هذه ، الأكثر عذوبة من العذوبة في قلب الرجل الذي لا ارتباط له ، لي حِمْلٌ ، أكثر خفة ، يا امرأة ، من حمل التوابل والعطور ـ بذار نفيس وحمل لا يقبل الفساد في سفينة ذراعيّ...

*

«سيري بهدوء أكثر ، يا خطوة الزمن فوق سقفي ، سير قدمين حافيتين لامرأة فوق الجسر . السماء في البحر تعطي حليبها ، وهذه أيضاً عذوبة فجر تحت حليب الدلو .

«أسهر وحيداً ، وعندي شغل شاغل : أنقل امرأة وعسل امرأة ، كسفينة تنقل القمح من افريقيا أو الخمر من بيتيكا . لايزال في الشرق ، السَّهَرُ ، الوقت ذو المسامّ ، ينتظرنا .

«رخوية الموت في خشب السرير ، وفي صالبِ السفينة . لكن الحب يقرع ألواح الحلم بشدة أكبر . وأنا أسمع الليل يتمزق أمام صالب السفينة .

«هو ذا البحر ذاته في لذائذه تحت مزنة الصباح الأولى ، كمثل بحر حزيران الذي يتنهد في الغرف ـ وأهداب العاشقة تنفتح وتَنْغلِقُ تحت مِطْرقةِ الحلم .

«أعرف ، رأيت : ممزوجاً بالأعشاب والزيوت المقدسة ، بين خُبّازاه الكبيرة السوداء المنبسطة ونتوءاتهِ في اللجّ المتلألئ ، مُؤرْجحاً ، ضاغِطاً على المقبض السعيد لأوراقه ،

«يتموج تموجاً واحداً كثيرَ الفيض ، كما بخطوةٍ واحدة من القاطفة ، موطوءاً لِتوّه ، ـ رأيت البحر كله الموطوءَ عبثاً ، والذي ينخفض ويعلو ، بإلبانٍ بطيء ، في صميم الكائن ، الذي هو استمراره...

«النسيم في الشرق على الماء الجديد ، كتغضّنٍ في جسد الطفل الوليد . القمر المنخفض على الكثبان يطارد في البعيد قنادِسَ الطفولة البيض . والليل يضع يديه الأنثويتين في أيدينا...

«ليلُ البحر على وجه هذه التي تنام في النهار أيضاً ، مرآةُ فَجْرٍ لا وجهَ له . وأنا أسهر على شاطئها ، يعذبني كوكب من العذوبة... سيكون عندي لأجل هذه التي لا تسمع

«الكلمات التي لم يقلها رجل .

*

«أيتها المسافرة إليّ أنا خارج ليلكِ الأنثوي ، يا من تَسْتيقظينَ في أيْدٍ مُنْتَهِكة ، كابنةٍ لمن لا تفنى ، تُؤخذ بإبطها خارج الزبد الأم ، من أنتِ لي غير مَنْ أنتِ في النهار وفي اسوداد الكائنِ ، وقشرته ؟

« كنتِ تولدين ، كنت أترصّد... أنتِ نائمة ممددة تحت كَوْكَبةِ ذراعيكِ وتحت تُرْس النهدين ، كنتِ تبتسمين ، محروسةً من الشر ، مُودَعةً بين يديّ ، كابنةٍ عريقةٍ لعبور البحار ـ وها أنتِ تستيقظين ، ووجهك موسوم بالتغضن المقدس ؛ وأيّ فألٍ لايزال يفتح نحوك طريقه السّورنجانية ؟

«اهدأ ، أيها القلب الواجف . لا وعيد ، لا خطر . على ضعفك أسست ، وعلى نعمتك شيّدت . سلطان الحب يتمرس أخيراً ضد الشك والتمحك . أولست من اللائي فهمن صوت البحر ؟ «ألا لا تستجْلِ أية امرأة خوفها في مرآة مياهي!»

«خارجاً تتنفس السماء بخياشيمها الملحية . ليل الصيف يطوي أشرعته ويرجع سفنه المجهزة بالأجنحة . القمر يهدأ في خمر الخبّازى . والخادمة المُستلْقيةُ فوق حصرها الخيزرانية تؤاوي في قعر الخليج الدمى السماوية الكبيرة الآخذة في الغرق .

«الفجر على عتبة المسابك ؛ وفي البعيد المدينة وشعبها كله المُتَهجِّجُ العيون كالموتى . المراكب تنعطف على مراسيها . الحراس فكوا السلاسل في مدخل المرفأ . وفي الحانات تنطفئ مصابيح الزوايا .

«ليكن لكِ الاستقبال الطيب ، أيتها الموجة الزائرة الأولى ، التي هزت هياكل السفن في أحواض المرافئ ، والصواري في قرارة المرفأ كسهام في كِنانَاتِهِنّ . موتى الموت العنيف ينحدرون الى المصبات النهرية مع سوسن الماء . الطفولة وكلابها الصفر تهجر العائلات . وبحر جازون يغذي بعيداً نباتاته اللاحمة...

«يا حب ، يا نعمةً مغطاة تحت رقابة وضح النهار... أيها

الضياء ، لا تَحرِمْني! من نعمة الحب هذه التي هي ، في كل شيء ، كالهبوب في الشراع... ضيقة هي المراكب ، ضيق سريرنا . هل سَنَحْتَفِظُ ، ضدّ النّهار ، وقد حَنَيْنا طويلاً في اللّيل قوسَ النّهار ، بانحناء الجسد هذا وانحناء الكتف التي تبطئ في انفكاكها ،

«كما يحدث لهؤلاء الذين عاشوا طويلاً في أحضان المراكبِ ، الأمينة ؟...»

VI

١ـ

« ... قبيل الفجر وسيوف النهار ، حين يدهن ندى البحر الرخام والبرونزَ ويفتّت نباح المعسكرات البعيد الورودَ فوق المدينة ، رأيتكَ ، كنتَ تسهر ، وتظاهرتُ بالنوم .

«من إذن فيك دائماً يجفو مع النهار ؟ وأين إذن مسكنك ؟... هل ستمضي غداً دوني في البحر الغريب ؟ من تستضيفُهُ ، إذن ، بعيداً عني ؟ أو أي ربّان هادئ يصعد وحيداً الى مركبك ، من جهة البحر هذه حيث لا صعود ؟

«أنتَ ، يا من رأيته يكبر عبر خاصرتي ، كراصد ينحني على طرف الجُرف ، لا تعرف أبداً ، لم تلمح أبداً وجهك العقابي الجوّاب . هل سيخترق الطّيرَ المنحوت في وجهك ، قناع العاشق ؟

«من أنتَ إذن ، أيها السيد ؟ نحو أي شيء تتجه ، حيث لا نصيب لي ؟ وعلى أيّ شاطئ للروح تستوي ، كأمير بربري على سُرْجه ؛ أو كهذا الذي يتنشق ، عند النساء ، حموضة الأسلحة ؟

«كيف أحب ، بحبّ امرأة تحبّ ، من لا يقدر أحد أن يفعل شيئاً من أجله ؟ وماذا يعرف عن الحب ، من لا يعرف إلاّ أن يترصد ، في معجزة الجبين ، هذه الغبطة النّسائيّة المفردة التي يولّدها ؟...

«هو ذا . الريح تهبّ . وسَرطانُ المصارع يجري في الماء الحي . البحر المسلح يأمرُ دائماً!... أليس حباً كبيراً ، الحبّ الذي يتأمّل الفعل ؟ ـ الحب ، الحب الذي لا يكون كبيراً جداً ، إلا في لحظة الهجر...

«لم تكن العقبان ، هذه الليلة ، بين الجيوش . ارتجاج أسلحة تحت الرمال وتحت حجر العتبة... ودائماً على بابك ، الموجة المحمحمة ذاتها ، بالحركة ذاتها التي تقدّم بساعديها العاليينِ ، الشبحَ ذاته للشكيمة العالية!

«من البحر أيضاً يجيئنا ، أحياناً ، أكنت تعرفُ ذلك ؟ هذا الرعب الكبير من الحياة . آنذاك يكون القلق في نهد المرأة كأفعى

الرمال المقرّنة... يا كرَوانَ القلب ، يا خوف العاشقة ، ما من خطرٍ أعظم مما هو في نوم العاشقة .

«هذا الذي عبر في الليل كثيبَ جسدي ليذهب ، حاسر الرأس ، يَستَنطِقِ في الشّرفات الإلهَ مارس المحمرّ القوي كنارٍ زَحْفٍ على البحر ، أقول ليس له من المرأة لا المتعة ولا العناية...

*

«... أيتها الوحدة ، يا قلب الإنسان! هل المدّ الذي تحمله سيغذي أكثر من الحلم ؟ كان الليل المرمريّ يفتح جراره للكآبة ، وفي غرف قلبك المغلقة رأيت المصابيح تطوف بلا حارسات .

«أين أنتَ ؟ يسأل الحلم . وأنتَ لا جواب عندك : تتكئ على ألمِكَ كابن ربان سفينةٍ حربية ، لا سفن له ، بنى على الشاطىء المقفرِ أمامَ البحر ـ سريره يشرف ، والنّوافذُ مفتوحةٌ كلّها ، على امتداد المياه .

«أين أنت ؟ يسأل الحلم . وأنت ، العائش بعيداً ، تلمح بعيداً هذا الخط الذي يتحرك ويصرخ جنوناً : البحر في البعيد ، بروحه المتقلّبة ، كجيشٍ بلا قائدٍ ، يُبَلْبِلُه العرّافون... وأنا ، أيّ طُرقٍ أخرى إليكَ أعرفها ؟

«لا تكن لي سيداً قاسياً بالغياب والصمت . أيها الوجه العاشق ، بعيداً عن العَتبة... في أي مكانٍ تكافح بعيدٍ بعداً يحولُ دونَ أن أكون فيه ؟ من أجل أية قضيةٍ ليست قضيتي ؟ وما أسلحتك التي لم أغسل وجهها أبداً ؟

«خائفة أنا ، وأنتَ لستَ هنالك . الزوجة وحيدة ومهددة ، العاشقة مُهزَّأة . أين رُسُلُكَ ، أين حراسك ؟ هل الزوجة المهجورة ، سَتُخان كذلك ؟ من يُحاصِرُ البحر ؟ المكيدةُ على جبهة البحر . تفاهمت واتفقتَ . ومن إذن أدخل الغريبة ؟ ـ البحر هنالك ، لا يعلن اسمه . ويطوف بالبيت . الحصار ينتهي . الجموع في الغرف . لم تعد الزوجة مصونةً من الاختلاط . وليست هذه التي على عتبتنا خطوة مرضعةٍ أو جدة ، بَلْ أُدخلت الساحرة ـ تلك التي جيء بها من المطابخ وحي بائعات المحار . فَلْتفتح عروقَها في الغرفة ولا تقتربْ من سريرك! أم زانية وساحِرة ، تفتح لك هناك تنانيرها الخضر ، وتقدم لي لكي أشرب خمورها الخضر . ونغرق ، نحن الشريكين ، في عينيها الخضراوين التَيساليانيتين ـ تهديداً للعاشقة وعاراً...

«أيها الآلهة المُغيثون ، أيها الآلهة الأرضيون! ألن تنضووا في صفّ العاشقة ضد البحر ؟ وأنت يا قلب الإنسان ، غير المتحجر ، ألا فلتبرّئك السماء من قوتك!

*

«... أنتَ الذي رأيتكَ تنام في دفئيَ الأنثوي ، كبدويّ يلتف بثوبه الصوفي الضيق ، ألا فلتتذكر ، يا حبي ، جميع تلك الغرف المفتوحة على البحر حيث أحببنا .

«فكّرْ بذلك النبضِ من المدّ والعاصفة ، حيث أُرهقت أسرتنا وتعرّت قلوبنا ، والذي كان دَمنا نفسه ، باحثاً عن الاعتراف ؛ فكر بجميع تلك الكواكب المنطفئة التي كنا نحملها الى البحر قبل النهار ، سائرين بأقدام حافيةٍ بين أشجار الرنْد كسفاحين مقدسين بأيديهم المضرجة كأيدي الشعراء المنشدين ؛ فكر بالأقمار الكثيرة المنهكة التي كنا نرشقها ، من أعلى الأجراف ، مع طيور الكَرْكَرِ البحرية .

«الحب كذلك فعل! به أثبت الموت الذي لا يُذله إلا الحب . وجبهتانا مزينتان بملح الأحياء الأحمر! أيها الصديق لا تذهب أبداً من هذه الجهة للمدن حيث ينسج لك الشيوخ ذاتِ يومٍ قَشّ التيجان . المجد والقوة لا يتأسسان إلا في مستوى قلب الإنسان . والحب في الصحراء يستنفد من الأرجوان أكثر مما يتسربَل به سقوط الممالك .

«لا تبتعد كذلك عني في البحر المتقلب . لا بحر ، لا وقت ، لا فعل إلا وتقدر فيه خادمتك أن تحيا كامرأة . والمرأة في الرجل ، وفي الرجل البحر ، والحب بعيداً عن الموت يبحر في كل

بحر . لكن نحن ، ماذا نعرف من القوى التي توحدنا ؟... أصغ الى جناحي يصطفق في جناحك أسيراً ـ نداء الى العقاب البحري الذكر من رفيقته التي لم تفطم!

«خائفة أنا ، ومقرورة . كن معي على ليل البرد ـ كالكوكب الأحمر الذي علقه الكاهن بركيزته الحجرية السوداء ، المثقوبة ، في تلّة الملوك ، إزاء البحر ، ومن أجل طقس الانقلاب الشمسي... احضني بقوة أكثر ضد شك الموت وجَزْرِهِ . انظرْ إلي ، أيها القوي ، في هَذا المكان الأميري الجبين ، بين العيون ، حيث يرتسم الأحمر القرمزي للتقديس بريشة لاهبة .

«اللّه الوكيل! وعهداً وثيقاً!... لا تبتعد أبداً . كن هنالك . ألا لا يحلم فيك أحد ولا يغترب! وهذه التي كانت تسهر ، على جنبها الأيمن ، سهرها الفاني ، ستنهض من جديدٍ قرب الرجل من أجل قهقهة الخالدين هذه التي كانت تجمعنا نحن الاثنين في تفرّق المياه... وصلاتي آنذاك إلى الآلهة الخرس : ليجمعْنا يوماً ثوب واحد من البحر ، في ثوب واحد من الحلم ، من موت واحد!

«لا فعل أكثر عظمة وشموخاً من الفعل في سفينة الحب» .

*

ـ٢

«... أسلحة محطمة في غور الفجر ـ يا للبهاء ، يا للحزن! ـ وبحر في البعيد لا يُنْتَخَب... رجل رأى آنية ذهبية في أيدي الفقراء . وأنا كنت أشرد في الحلم ذاته ، وأشاطئ الساحل الإنساني الضيق .

«لا خائنٌ ، لا حنَث باليمين : لا تخافي . سفينة تحمل امرأة ليست أبداً سفينة يهجرها رجل . وصلاتي لآلهة البحر : احفظي أيتها الآلهة ، السيف الطاهر لقلب الرجل ، في تصالبه مع المرأة .

«سلالتنا قوية ، أيتها الصديقة . والبحر بيننا لن يرسم حداً... سنمضي على البحر ذي الأريج القوي ، ودرهم النحاس بين أسناننا . الحب في البحر ، حيث الكرمة الأكثر اخضراراً ؛ والآلهة يجرون الى العنب الأخضر ، والثيران الخضر العيون تحمل أجمل فتيات الأرض .

«سأغسل فيه ثيابي أنا الجوّاب ، وهذا القلب البشري المعمور . وهناك تكون لنا الساعات كما نرجو : كبنات بيت عظيم حين يبحرن بلا وصيفات ـ دون تكلّف وبتأدّب عال ، مجداً ونعمة وحميّا من الروح!

«أيها العشاق ، لسنا أبداً أهل زرع ، ولا أجراء حصاد . لنا الموجة الحرة العالية التي لا يكْدنُها ولا يروّضها أحد . ولنا ، على الماء الجديد ، جدة الحياة كلها ، ونضارة الوجود كلها... أيها الآلهة ، يا من في الليل ترون وجوهنا بلا غطاء ، لم تروا وجوهاً مدهونة ولم تروا أقنعة!

*

«عندما سنرفع ألواحنا الخشبية الرقيقة ، يكون قرن كامل من المأساة قد أسدل ستائره الجديدة . أخيراً أفهمنا أحدهم! أيّ حمحمة من فَحْلٍ أبيض ، أطلقت مع النسيم هذه الرعشة العظيمة من عاشقة على رداء المياه ؟

«سنهبط الى الخلجان نصف المغلقة حيث تُغسل في الصباح الحيوانات الصغيرة المهيّجة ، والتي لاتزال مدبّقة كلها بالمد الأول من النسغ المهبلي . سنسبح كذلك سوية ، قبل رفع المرساة ، في هذه القيعان من الماء النقي ، المخططة باللاّزورد والذهب ، حيث تمضي ظلالنا لتتحد في ثوب واحد من الحلم .

«الريح تهب . أسرعي . الشراع يصطفق على مدى السارية . المجد في الأشرعة ؛ والجزع على المياه كحمّى الدم . النسيم يقود الى زرقة اللج أحناشه المائية الخضر . والربان يتقرى طريقه

بين البقع الكبيرة لليل البنفسجي ، والتي هي بلون ازرقاق العين ولون الكدمات .

« ... كثيراً ، أيتها الصديقات ، حلمت بالبحر في أسرتنا نحن العشّاق! وطويلاً جداً جرّت الدخيلة على عتباتنا ثوبها الغريب ، كأردان تنورة تحت الأبواب... آه! لتجمعكن ، أنتن جميعاً ، موجة واحدة من العالم ، الموجة ذاتها ، أيتها الرفيقات يا فتيات من كل مرتبة ، يا حيّات يا ميتات في كلّ عائلة!

*

« ... والبحر ، من كل صوب ، يأتينا بعلوّ الإنسان ، ضاغطاً ، رافعاً ثول الأمواج الفتية المرصوصَ كألف رأس من العرائس... أيتها الورود التي كنت تشتعلين في يدي الغاصب ، كما تقول الأسطورة ، هل ستحسدينني على هذه التي تعبر معي باب الكلس اللاهب ، على درج المرفأ ؟

« من أفضل بذورنا ، من أفضل ثمارنا جبل ، يا امرأة ، هذا الجسد . لاتزال أملاح الأرض السود ترشّ الذَّرور على أهدابه المعقودة . سيكشف لنا روح الخزامى المقطر وماء الاترنج الغشائي الكشف الأفضل في البحر عن نواته الملحية الخضراء . والحب على الجِسْر ينتعل خفاً من الجلد الأحمر... « آياه... عنزة

السفينة ستمنحكم حليبها... والقرد خطف لآلئكم في مخزن الصواري... »

«ـ فانية ؟ آه! معشوقةٌ أكثرَ لكونكِ في خطر!... لا تعرفين ، لاتعرفين ، يا إلاهة القدَر والموت ، من أجل قلب الإنسان الشديد الغموض ، هذا الثمن لأول تغضنٍ أنثوي في أبهى ما في الجبين الهادئ . «احفظي ، كان يقول رجل الحكاية ، احفظي ، أيتها الحورية الأبدية ، عطيتك الأبدية . جزيرتك حيث لا يورق الشجر ليست لي ، وحيث الرجل لا يجابه مصيره ، لا يحرّكني سريركن » .

«سريرُ البشر ، المُشَرَّف بالموت هو الأفضل! سأستنفد طريق الفاني ـ قدر البحر وسوء المصادفات ـ وأصون من الشوكِ المشؤوم هذه التي تلتجئ تحت شراعي . أيتها الأيدي الهالكة ، أيتها الأيدي المقدسة! تعقدين لي من جديد جدارةَ الانتصار . عاشقاً ، أمضي حيث الموت المغامر والباطِل . يا لضحك العشاق الحر ، وغطرسة الحياة العالية ، كرعشة الشرف الكبيرة على البحر المختصر والذي لا يُدرك ، حيث الشراع تحت قِدَده يجري!...

*

«... الوقت صحْو في البحر ، تجعّدان نقيانِ في الجبين النقي ، ونعمة كبيرة للعاشقة على المياه . هذه التي يغذي قلبها براءة النهار ، وتقدم للفقر كأسَ عذوبتها ؛ هذه التي تحمل حبّها كنسيان المصابيح في وضح النهار ؛ هذه التي قالت فيَّ الحق ، والتي ستخلصني من يدي القرصان ، تلك ، الأقوى من العذوبة ، قالت لي عن المرأة أكثر من امرأة . والبحر بيننا يَرْئِسُ طبقة الأحياء العالية .

«... ضيّقةٌ هي المراكب ، ضيق سريرنا . ومنكَ ، أيها القلب العاشق ، ضِيقُ الحبّ ، وبك ، أيها القلب القلق ، كل ما وراءَ الحبّ . أصْغِ الى عشيرة الأجنحة المهاجرة تصفر أعلى من البحر . وأنتِ ، أيتها القوة الجديدة ، يا هياماً أكثر علواً من الحبّ ، أي بحرٍ آخر تفتحينه لنا حيث لا حاجة للمراكب ؟ (هكذا رأيت يوماً ، بين الجزُرِ ، هجرة النحل الصاخبة ، والتي كانت تتصالب مع طريق السفينة ، تعلّق لحظةً بأعلى الصواري ، الخشْرمَ الوحشي لروحٍ متعدّدة ، تبحث عن مكانها...)

«أيها العشاق المخيفون والغامضون ، أيها العشاق الصامتون ، أنتم يا من لا يدنّسكم أيّ نوم ، ألا فليحضنكم البحر في سلطانه!... العالم يجري الى تجدداته المِدْماكية ـ تمزق الحكماء

في الحيزوم ، زَرْع البروق على جميع القمم ، وكل التبعثر الفرح لمأساةٍ لا تخطئ . لنا البحر المتأصّل في الحلم ، المسمى واقِعاً ، وطرقه الملكية اللاحبة التي تنقل التحالف بعيداً ، وشرائعه العظيمة الوَقِحة الموغلة في الكشف ؛ لنا ، أيها الوجه السّخيّ ، خلية المستقبل الضخمة ، الأغنى بالنخاريب من الصخور البحرية المثقوبة بأصنام الصحراء . وانتظارنا لم يعد باطِلاً ، والقربان قربان امرأة!...

«أيها العشاق ، العشاق ، أين أندادنا ؟ نتقدم ، وجهنا الى الليل ، بكوكبٍ على الكتب كصقر الملوك! وراءَنا هذا المَخْرُ كله الذي يتطاول والذي لايزال يرضع من كوثلِ سفينتنا ، كذاكرة هاربة وطريق مقدس . ونحن إذ في التفاتِنا نحو الأرض المتقهقرة ونحو أعمدةِ شرفاتها ، نصيح بها ، أيتها الأرض ، يا إيماننا القليل عادةً وحرية ؛ وليس لنا على البحر ذَرورٌ ولا رماد في يدي المرتفق .

«لا نشاركُ في أية مهمة ، لأننا لسنا معتمدَين ـ لا أمراء ولا سفراء مملكة ، في طرف أشباه الجزر ، لمشاهدة الكوكب الملكي في مغيبه ؛ نحن وحيدون وأحرار ، بلا ضمانٍ ولا رهان ، ولا نشاركُ في الشهادة... سفينة ذهبية تبحر ، كل مساءٍ ، صوب هذه الحفرة من البهاء حيث يُطرح فيها للنسيان حكامُ التاريخ وجميع

الآنية المنقوشة من العصور البائدة . يمضي الآلهة عراةً الى عملهم . البحر ذو المشاعل التي لا تحصى يقدم لنا بهاءً جديداً ، كحرشف السمك الأسود .

«أيها العشاق ، العشاق ، من يعرف دروبنا ؟... سيقولون للمدينة : «لِيُبْحث عنهم! إنهم يتيهون!... وغيابهم مأخذ علينا» . لكن نحن : أين التعسّف إذن ؟ الآلهة يعمون على الماء الأسود . وما أسعد التائهين في البحر! وليُقَل كذلك عن البحر : ما أسعد التائه!... موجة واحدة من العالم ، موجة واحدة بيننا ، ترفع وتدحرج أفعى ماءٍ تعشقُ قوّتَها... ومن العقب المقدس ، هذا النبض القوي جداً ، والذي يربح كل شيء... حب وبحر من سرير واحد ، حب وبحر في سريرٍ واحد...

«سلامٌ ، سلامٌ للصِّدق الإلهي! وذكرى طويلة على البحر لجموع العشاق المسلحة!» .

VII

فيما يُقبل الشتاء والبحر يصطاد .

الليل يصعد مصبات الأنهار ، وسفن القربان تتأرجح في قباب المحاريب . الفرسان في الشرق ظهروا على أحصنةٍ بلون وَبر الذئب . العربات المحملة بالأعشاب المرة تنهض في السهول . والمراكب المسحوبة خارجَ الماء تزورها قنادس الشاطئ الصغيرة . سيخضع لِلضّريبةِ الغرباء الآتون من البحر .

رأيت ، أيتها الصديقة ، عينيك المسيجتين بالبحر ، كعيني المصرية . وقوارب النزهة مسحوبة إلى الأروقة ، في الممرات المليئة بالأصداف والرخويات ؛ الأرصفة الترابية المتفسخة عامرة بحشد متأخر من زنيبقات الرمال . والعاصفة تنسج ثيابها السود والسماء تتصيد في مراسيها . المساكن العالية في الأجراف مدعومة بألواح الشوح . تُؤَآوَى أقفاص العصافير الصغيرة .

*

الأرض تكشف لنا عن رضفاتها . يقبل الشتاء ، والبحر بعيد . يُحرق الزفت والقار في قدور السَّبْك . حان الوقت ، أيتها المدن ، لنزيّن بهيكلٍ أبواب سيبيل . إنه الوقت كذلك للاحتفال بالحديد على السندان ذي الرأسين . البحر في سماء البشر ، وفي هجرة السقوف . الحبّالون يسيرون القهقرى في حفر المرفأ ، والربابنة بلا سفن يتكئون على موائد الحانات ، الجغرافيون ينقبون عن دروب شاطئية . هل سيخبركم حاكم الغرباء بمأوى العشاق ؟

أيها الحلم ، قل الحق . شحنات الخشب الحطاميّ تعبر أبواب المدينة . أسياد البيت يتمونون بالملح . بنات البيت العظيم يبدلن ثيابهن إزاء الموقد ، واللهب الأصفر يرفرف بجناحه كطائر بحري جارح في قفص حديد . في الداخل ، فوق المجارف ، تحرق أوراق القشر المخدَّد . وتجارة البحر تصب نقودها في المصارف العائلية ، الحيوانات المكدونة تشم قلَّز الينابيع ـ رنين السبائك في الغرف ، رفوف مستديرة وألواح مستطيلة وراء الأبواب المسيجة ـ وها هو كذلك نقد بشكل زورق ، أو بشكل حذاء امرأة... في شهادة النقود يستضيء التاريخ وتستضيء أخبار التاريخ .

*

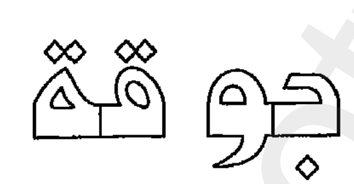
الشتاء يقبل ، الذباب ميت ،

ومن صناديق المسرح تُسحب الأقمشة الكبيرة الخضر الموشحة بالأحمر الحاد فيما الشتاء يقبل ، والذباب ميت . كاسيات الموتى يعملن في المسارح مع الممثّلين الصامتين... والبحر ذو الروائح المرحاضية لايزال يسكن في زاوية الجدران العتيقة . الجموع تسير ، ممزوجة بالعظام ، في ضجيج الأبواق الصدفيّة لأيلول... أيتها الصديقة ، أي بحر آخر فينا يغرق ويطبق وردته الخَرْبقيّة ؟ هل ستمَّحي بقع الصيف الصفراء في جبين النساء ؟ هو ذا غور الأشياء يتجلى : طبول عميان في الأزقة ، وغبار على الجدران التي يحاذيها الفقير . الجموع باطلة ، والساعة باطلة ، حيث يذهب الرجال بلا مراكب .

أيها الحلم ، قل الحق . الشتاء أقبل ، الكواكب لامعة ، والمدينة تتلألأ بكل نيرانها . الليل هيام الرجال . ثمة كلام عال في أعماق الفِناءات . صِلُّ المصابيح في الغرف ، المشعل النهم في خاتَمهِ الحديد . والنساء مدهونات لِلّيل ، بالأحمر المرجاني الشاحب . عيونهن المسيجات بالبحر ، مخمورات . واللائي يتفتحن في الغرف يرفعن الى الليل ، بين ركبهن الذهبية ، نواحاً بالغ العذوبة ، ذكرى وبحر صيف طويل . ـ في أبواب العشاق المغلقة ، سمِّروا صورة السفينة!

*

... موجة واحدة من العالم ، موجة واحدة في المدينة... البحر ، أيها العشاق ، يتبعنا! مات الموت! الآلهة يدعوننا الى المرسى... ومن تحت أسرتنا نَسحب أقنعتنا العائلية الكبرى .


جوقة

يا بحر البعل، يا بحر مامّون...

١

يا بحر البعل ، يا بحر مامّون ـ بحراً من كل اسمٍ ومن كل عمر ،
يا بحراً بلا عمر ولا عقل ، يا بحراً بلا سُرعةٍ ولا فَصْل ،

بحرَ البعل وداجون ـ الوجهَ الأول لأحلامنا ،
بحرَ الوعد الدائم ، والبحرَ الذي يتخطى كلّ وعْد ،

أيّها البحر السّابق على نشيدنا ـ بحرُ جهالة المستقبل ،
بحرُ ذاكرةِ اليوم الأطول كأنه في خَبَل

البحرُ نظرٌ عالٍ إلى امتداد الأشياء وقياسٌ لمجرى الكائن...

*

نبتهل إليكَ ، أيها الحكمة! يا بحر ، ونُدخلكَ في عهودنا ،
يا كبيراً في الانفراد وفي التبايُن ، يا كبيراً في الطبقة الكبيرة
وعالياً في المرتبة العالية ،

منك أنتَ أصلُكَ ، إقليمكَ وشريعتك ؛ منك أنتَ شعبك ونخبتكَ وجمهوركَ ،

يا بحراً بلا وصاية ولا حماية ، بحراً بلا حَكَمٍ ولا مشير ، ودون خصامٍ على التّولية :

مُولّىً بالولادة ، مليئاً بامتيازك ؛ مكيناً في ألقابك وحقوقِكَ الملكية ، ضامِناً نفسَك في ثيابكَ الامبراطورية ، لكي تفيضَ في العظمة وتنشر بعيداً

أشكالَ وجودك الكبرى ، كنِعمٍ امبراطورية ورعاياتٍ أميريّة .

*

أكنّا ننام ، وأنت نفسك ، أيها الحضور ، حين حُلمَ لنا بهذا الهذيان ؟

نقتربُ إليكَ ، يا مائدة العظماء ، والقلب يغصُّ بضيقٍ إنساني .

أينبغي أن نصرخ ؟ أينبغي أن نخلق ؟ ـ من إذن يخلقنا في هذه اللحظة ؟ ولكي نجابه الموت ، أما من فعلٍ آخر غير الخلق ؟

نصطفيك ، يا موقع العظماء ، يا ناحيةً مفردة! يا مسرحَ عِزّةٍ ونماء وميدانَ تهليل!

نسألك إذن ، ما هذا التحالف الذي لا انفكاك له ، وهذا الاجتماع الذي لا مردَّ له ؟

أولى أن تحرقَ في محيطكَ البحريّ مئة ملكٍ مجذومٍ متوّجين بالذهب ،

جمهورَ عِزّةٍ وعِوَزٍ وكبرياء بشريّة باطلة .

*

التَّطلُّقُ الحرّ لمجدك ، أيها القوة! أيها المُقدَّم المَوْلى!...

فسيحٌ هو الإقليمُ ، مطلقٌ هو القضاء ؛

ويكفينا ، في إقليمكَ ، أن نتسوّل الانتفاعَ والحصانة ،

يا بحراً بلا أسوارٍ ولا حَرَس ، يا بحراً بلا كرومٍ ولا زَرْع ، حيث يمتدّ ظلّ العظماء القرمزيّ!

نجلس على تخومكَ الحجرية ككلابٍ لها رؤوس القرود ، آلهةً مزيجاً من الطّين والحزن ،

في جميع المنحدرات المَحْتُوتَة ، في جميع المنحدرات المتكلّسة بلون الحُثالاتِ المحروقة ،

حالمين بكَ ، أيها الدّورة الأخيرة! وكان لنا من أجلك هذا الحلمُ من الدرجة العليا :

محفِل الذّروات العُلى من الأرض ، بثنيّاته الطويلة ، كمنتدى مقدّس لأعظم الحكماء المنصّبين ـ الأرض كلها ، صامتة ، وفي ثيابها المجمعيّة ، والتي تعقد الجلسة وتقعد في المنتصف الدائري الحجريّ الأبيض... »

٢

مع أولئك الذين ، إذ يذهبون ، يتركون على الرمال أخفافَهم ،
مع أولئك الذين ، إذ يصمتون ، يفتحون دروب الحلم التي لا عودة منها ،

نتجه ذات يوم نحوك بثيابنا العيدية ، يا بحر يا براءة المدار ، يا بحر يا طيش اللقاء ، ولا نعود نعرف أين تتوقف خطواتنا...

أم هل أنتَ ، يا دخان العتبة ، الذي تتصاعد من ذاتك فينا كالروح المقدسة لخمرٍ في مراكب الخشب البنفسجي ، في زمن الكواكب الحمْر ؟

نحاصركَ ، أيها السطوع! وسوف نعيش عالة عليكِ ، يا خليّة الآلهة ، يا ألفاً وألفاً من غُرَف الزبد حيث يكتملُ الجُرم . ـ كن معنا ، يا ضحِك خَليج كوم ، ويا آخر صراخٍ من الأفَشوسيّ!...

هكذا الفاتحُ ، تحت ريشته الحربية ، في أبواب المعبد الأخيرة : «سأسكن الغرفَ المحظورة وأتنزه فيها...» لستَ أبداً يا قار الموتى سماد هذه الأمكنة!

وأنتَ ، ستنجدنا ضدّ ليل البشر ، أيها الطفحُ الساطعُ فوق عتبتِنا ، أيها البحر المنفتح على المأساة المثلثة : **بحر** الرَّوع والجُرم ؛ **بحر** العيد والألق ؛ وكذلك **بحر** العمل!

*

بحر الروع والجُرْم ـ هو ذا :

نعبر أخيراً اخضرار العتَبة الملكي ؛ وإذ نفعلُ أكثر من تخيّلكَ ، نطؤكَ ، أيها الأسطورة الإلهية!... في الفُرَج البحرية ينتشر الكوكب الذي لا وجه له ؛ الروح أكثرَ من الفكر يتحرك فيها بخفة . وأنتَ لنا نعمة من أمكنة أخرى . فيك ، أيها المتحرك ، نستنفد ، إذ نتحرك ، الهجوم والجُرْم ، يا **بحر** الاستقبالِ الذي لا يوصف ، **بحر** البهجة الشامل!

لم نُرْزَق أبداً ليمون أفريقيا الأخضر ، ولم نخالط العنبر المتحجر الصافي المرصع بأجنحة زائلة ؛ لكن هناك نحيا ، عراة ، حيث الجسد نفسه لا يعود جسداً والنار نفسها لا تعود لهباً ـ في النسغ المشع نفسه والبذار الفاخر : في هذه الصفيحة من الفجر

الأخضر ، كورقةٍ وحيدة ضخمة وضاءةٍ والفجرُ منفوث فيها...

وحدةٌ مستردّةٌ ، حضور مستعاد! أيها البحر يا إلحاحاً مضيئاً ، وجسد إقمار كبير . إنه النور صيغ لنا جوهراً ، وأجلى ما في الكائن المجلوّ ، كلحظة انزلاق السيف خارج قرابهِ الحريري الأحمر : الكائن مفاجَأ في جوهره ، والله نفسه مستنفَدٌ في أنواعه الأكثر قداسة ، في غوْر حدائق النخيل المقدسة... زيارة الأمير لمرابط مجده! ليجلس المضيف أخيراً الى المائدة مع ندمائه!...

الاتحاد اكتمل ، التواطؤ تامٌّ . وها نحن بين شعب مجدك مثل الشوكة في قلب الرؤيا . أينبغي أن نصرخ ؟ أينبغي أن نمدح ؟ من إذن يخسرنا في هذه اللحظة ـ أو من يربحنا ؟... عمياناً ، نمتدح . ونصلّي لك ، يا موتاً مزوراً من النعم الأبدية . ألا ، أيتها الآلهة ، فلتَغْنِ عباراتنا ، في النشيد ، بحركة الشفاه المتأنقة أكثر مما يتاح للحلم أن يمَوْمِئَ .

ثمة ، ثمة في مكانٍ من الزبد والمياه الخضراء ، كما في مَضاءات النار الرياضية ، حقائق هي ، عندما نقترب ، أكثر نفوراً من أعناق الحيوانات الأسطورية . وفجأة نتخبّط . أهذه أنتِ ، أيتها الذاكرة ، والبحر لايزال على صورتكِ؟ ولاتزالين تمضين وتعلنين اسمك ، ولانزال نسمّيكِ بحراً ، نحن الذين لم يعد لنا اسم...

ولانزال قادرين أن نتخيلك ، وقادرين لكن لوقت قصير جداً ، أن نسمّيك...

*

بحر العيد والألَق ـ هو ذا :

الله اللاّمُجزّأ يحكم أقاليمه . والبحر يدخل جذلانَ حلباتِ جَمر الحب . يا آكل الخبّازى ، والعجائب ، أيها البحر يا آكل الخشخاش الذهبيّ في المنتجعاتِ المنوَّرة بشرقٍ أبدي! أنت ، غاسل الذّهب في الرّمال الكدْودَة ، أنت ، سيبيلُ المشعشعَة في الصلصال الأبيض على الخليج! أنت من يمضي فخوراً ، يا غاسل القبور في جميع أطراف الأرض ، أنتَ يا رافع المشاعل في جميع أبواب الحلبة!

الشيوخُ ماضغو الرّماد والقشور ينهضون ، بأسنان سوداء ، لكي يُحيّوك قبل النهار . ونحن اللائي هناك ، رأينا ، بين النخيل ، الفجرَ المكتنز بأعمال ليلك . وأنت ، في الصباح ، مبرنقٌ بالسّواد ، كالعذراء المحرَّمة التي يكبر فيها الله . لكن ، في الظهيرة ، يهيجك الذّهب كفرسٍ الله المجلَّلة ، لا يسرجها ولا يمتطيها أحد ـ المطيّة الوزون الموزونة الخطوات تحت غطاء سرجها الملكي ، المزينة بالحجارة الكريمة ، المحلاّة بالفضة ،

والتي تهدهد في نيران النهار صورها النافرة الآسرة ورصائعها الكبيرة المصوغة بتفنن مقدس ؛

أو المطيّة الصلبة المبرذعة بأبراج للرصد ، مقوسة تحت تمائمها الحربية الكبيرة المشبوكة بنحاس قديم ، بين التروس الاحتفالية ، والتي تنقل الى كلأبات سرجها ، مثل كومة من الأحشاء والطحالب ، الحمولة الوفيرة من الزرد والحلقات وبكرات لأمتها البرونزية ، ونصالها الحربية الجميلة ، المبقّعة بالتّلف ، في الأكمام المنفوخة لصداراتها الجلدية الكبيرة ؛

أو بالأحرى ، المطية الوديعة العارية ، بيننا ، بلونها الإسفلتي الموشومة بزخارف كبيرة من الخزف الندي والمغْرة الصافية ، والتي لا تحمل إلا صولجاناً بحلية حمراء ووثن أسود ؛ نذورية ، مثقلة ، تتثاقل في مستنقع الجمع ، والتي ترقص ، وحيدة ، وتترصّن ، من أجل إلهها ، بين الجمع غير المكدَّر...

*

وبحر العمل كذلك ـ هو ذا :

نبحث فيه عن حرابنا ، عن جيوشنا ، وعن هذا الوخز القلبي الذي يعجّل العمل الباهر... بحر الفيض ، الذي لا يتعب ، بحر الجزْر ، الذي لا يخطئ ، بحر عنف البربري ، بحر صخب النظام

الكبير ، أيها البحر المتواصل تحت السلاح ، أيها الأكثر فعلاً وقوة من الفعل والقوةِ في رَجْفةِ الحب ، أيها الحر العزيز في تدفقاتك! ليستجب صراخنا لتهللك ، يا بحر زحفنا المقتحم ، وستكون لنا بحر الحلبة الصراعي!

ذلك أن لذتك في الجمع وفي النزوع الإلهي ، لكن بهجتك على طرف الشاطئ الصخري ، في تواتر البرق وصداقةِ السيف . ورأيناك ، يا بحر العنف ، وبحر النشوة ، بين ورودك الكبيرة القاريّة ، وتدفقاتك النفطية المتلألئة ، تدحرج في أشداق ليلك ، كرحىً مقدسة موسومة بتشكلات سداسيّة غائمة ، الحجارة الثقيلة المغسولة بالذهب لسلاحفك العملاقة ،

وأنتَ متحرك في أنساقك الحرشفية ونقراتك التعشيقية الواسعة ، أيها البحر المتواصل تحت سلاحه ، وبحر القوة الرشيقة ـ أيها الهائل ، أيها الشامل ـ اللامع المتقوس على جسمك ، كأنك متورم بالخيلاء ، موسوم بارتداد الأمواج العالية لوحشكَ الحربي ، يا بحر التأسيس الراسخ ، البحر المُسْتَنْفَر من النظام الأكبر ـ أيها النصر ، أيها الشمول ـ المحمول بالمدّ نفسه! تعظم وتعلو إلى طفاح ذهبك مثل القيْن الحارس على بلاطه البرونزوي...

القلاع المهدومة على صوت مزامير الحرب لا تملأ مكاناً أكثرَ اتّساقاً لانبعاث الموتى! في شَفافيةِ اليود والملح الأسود

للحلم الوسيط ، تُسوّر الحلقة الرهيبة للحالم ، لحظةَ هَلع أبدي : الساحة الضخمة المبلطة بحديد المقاعد المحظورة ، وهيئة العالم المتكشفة بغتة ، والتي لن نقرأ وجهها أبداً... ومن الشاعر نفسه ، في هذا البحث المخيف ، ومن الشاعر نفسه ، ماذا يحدث في هذه المشاجرة المضيئة ؟ ـ سيقال هذا المساء ، قُبِض عليه ، متلبساً بِجُرْمه .

٣

الصّورةُ متعددةٌ ، ومسْرفٌ هو الوزن . لكن الوقت كذلك يعيد الجَوْقةَ الى مُحيطِ الدَّور .

امتنانُ الجوقة في خطوة النشيد الأمير . والإنشادُ يُردَّدُ تمجيداً للبحر .

لايزال المنشد يواجه امتداد المياه . يرى ، بلا حدودٍ ، الى البحر بتغضّناته ،

كقميص الله المتموّج بلا نهاية في أيدي نساء المعابد ،

أو كشبكة بحر القرية ، الواسعة ، على منحدرات العشب الفقير ، في أيدي بَناتِ الصّيادين .

وسرْدةً سرْدةً تتكرّر الحبكةُ الموسيقية البليغة ـ البحر نفسه ، على صفحته ، كإنشادٍ مقدّس :

*

«... يا بحر البعل ، يا **بحر مامّون** ، يا بحراً من كل عمر ومن كل اسم ؛ يا بحراً من كل مكان آخر ومن كل وقت ، بحرَ وَغْدِ اليوم الأطول ، البحر الذي يتخطّى كل وعد ، لأنه وعد **الغريب** ، بحرَ السرد المتعدّد ، وبحر الإطناب الذي لا اسم له!

«فيك أنتَ المتحرّك ، إذ تتحرك ، نسمّيك بحراً لا يُسمّى : متحوّل وحائِلٌ في تغيّراته ، ثابتٌ هو هوَ في كتلتهِ ؛ تنوّعٌ في المبدأ وتعادلٌ في الكائن ، صِدْقٌ في الكذب وخيانةٌ في الأمانة ؛ حضورٌ كله وغيابٌ كله ، صبرٌ كله ورفض كله ـ غياب ، حضور ، ترصّنٌ وهذيان ـ إباحة!

«أيها البحر يا وميضاً لا يفنى ، يا وجهاً مضروباً بالألق المفرد! أنت مرآةٌ ممنوحةٌ لما وراء الحلم وبحرٌ مفتوح على ما وراء البحر ، كصنجٍ مفردٍ في البعيد ازدوج! جرحٌ مفتوح في الخاصرة الأرضية من أجل التطفل المقدس ، تمزق ليلِنا وتألق اللّيل الآخر ـ حجر عتبةٍ مغسول بالحب ومكان للتجديف مرعبٌ!

«(المداهمة ، الخطر! والحريق بعيداً موجّه كأنه في صحارى العصيان ؛ والهيام بعيداً موجّه كما لو أنه لزوجات غير مرصودات من سرير آخر... إقليم الكبار ، ساعة الكبار ـ ما قبل الأخيرة ، ثم الأخيرة ، وهذه التي أمامنا ، الحية بلا نهاية تحت البرق!)

«أيها المتعدد والنقيض! أيها البحر غير المحدود للمحالفة والمخالفة! أنتَ الاعتدال وأنت الإفراط ، أنت العُنف وأنت الوداعة ؛ الطهر في الرِّجْس وفي الفجور ـ فوضويّ وشرعيّ ، محظورٌ ومتواطئ ، جنون!... وماذا وماذا ، وماذا كذلك ، أيها اللامتوقَّع ؟

«الواقعي جداً وغير المحسوس ، ولا يقبل التقادم ؛ المتعذّر ردُّه واليقيني والذي لا يمكن تملكه ؛ الذي لا يُسكنَ ولكنه يُعاشَرُ ؛ الذي لا تعيه الذاكرة والجدير بالتذكر ـ وماذا وماذا ، وماذا كذلك ، أيها الذي لا يوصف ؟ ـ الذي لا يُدرَك والذي لا يُعطَى ، الذي لا عيبَ فيه والذي لا يقبل الإثبات ، والذي هو : بحر براءة المدار ، بحرٌ كخمر الملوك!...

«آه! هذا الذي كان لنا دائماً هناك والذي سيكون لنا دائماً هناك ، ممجّداً من الشاطئ ومن انحنائه : الوسيط والمصالح ، معلم شرائعنا ـ بحر المعطي والشحاذ ، الرسول والتاجر . كذلك هذا الذي نعرفه : المساعَدُ من أقلام محاكمنا ، الجالس بين كهنتنا وقضاتنا الذين يسنّون قواعدَهم متكاملة المعنى ـ كذلك هذا الذي يستنطقه مؤسسو الروابط البحرية ، الموحّدون الكبار للشعوب المسالمة وقادة الشبان نحو زوجاتهم في شواطئ أخرى ،

«ذلك نفسه الذي تراه في الحلم حامياتُ الحدود ، وناقشو

الشعارات على حدود المملكة ؛ وواضعو البضائع في بوابات الصحراء ومتعهدو النقد بعملة صَدفيّةٍ ؛ قاتل الملك الهارب في الرمال والمجرم الذي يُقاد من جديد على طوق الثلج ؛ وحراس العبيد في المناجم المستندون الى كلابهم ، ورعاة الماعز الملتفون بخرقهم الجلدية ؛ وراعي البقر الذي يحمل الملح بين حيواناته الموجَّهات ؛ هؤلاء الذين يمضون الى جَنْي البلوط بين أشجار السنديان النبوية ، أولئك الذين يعيشون في الغابة من أجل صناعة المكاييل ، والباحثون عن الخشب المَحْنِيِّ لبناء مقدمات السفن ؛ العميان الكبار عند أبوابنا في زمن آتٍ من الأوراق الميتة ، والخزّافون الذي يرسمون ، في الساحات ، الأمواج في حلقاتٍ سودٍ على صلصال الكؤوس ، جامعو السّتائر من أجل المعابد وخائطو الأشرعة البحرية تحت أسوار المدن ؛ وأنتم كذلك ، وراء أبوابكم البرونزية ، أيها الشُّراح الليليون لأقدم النصوص في هذا العالم ، وكاتب الحوليات ، قرب مصباحه ، يصغي الى صخب الشعوب البعيد ولغاتها الخالدة ، مثل منادي الموتى على حافة الأضرحة ؛ المسافرون الى بلاد عالية مزودين برسائل رسمية ، هؤلاء الذين يسافرون في مِحَفّات بين تموج الحصاد أو الغابات المبلطة بحجر الملك المجنون ؛ وناقلو اللؤلؤة الحمراء في الليل يشردون مع أكتوبر على طرق تاريخ الأسلحة الرّحبة المدوّية ؛ القادة المصطفّون وسط جمهور النصر ، الحكّام المنتخبون في

مساءات الهياج على الحدود والخطباء المرفوعون في الساحا
الهاجرية الفسيحة ؛ العاشقة عند جذع العاشق كما في هيَ
الغَرْقى ، والبطل الذي يأسره بعيداً سريرُ السّاحرة ، والغريب ؛
وورودنا الذي ينوّمه هديرٌ بحري في حديقة نحل المضيفة ـ
وقتُ الظهيرة ـ النسيم ناعم ـ والفيلسوفُ ينامُ في مر
الصلصالي ، والقاضي فوق سطْحهِ الحجريّ كجؤجؤِ السفين
والأحبار على مقاعدهم الشبيهة بالزوارق...»

*

أيها الوعد ، الدقيق عن الوصف! الحمّى عندك! ، وعن
العذاب!

الشعوب تحاول فَكَّ قيدها باسمكَ البحريّ وحده ، الحيوا
تحاول فَكَّ حبلِها بذوقكَ وحده الى المراعي والنباتات المـ
والرجلُ الذي أدركه الموت لايزال يتحرى على سريره ارتـ
الموج ، والفارس الضائع في الأرض المعدّة للزرع لايزال يتـ
على سرجه بحثاً عن منزلك ، وفي السماء كذلك تتجه نحو حر
الغيوم بناتُ سريرك .

انتزعْ حجرَ الينابيع المسوّر ، هناكَ حيث المناهلُ تفكـ
الطريق الذي اختارته نحو البحر . ليُقطع أيضاً الوصلُ والأ

والمدار! صخور كثيرة عند التوقف ، أشجار كبيرة كثيرة عند العقَبة ، سكرى بالانجذاب ، لاتزال تجمد في شرقكَ البحريّ ، كحيواناتٍ تُحْلَب .

أو لِيَقُدِ اللّهبُ نفسه ، وهو ينحدرُ في تفجّر متزايد من ثمار الغابات ، ومن الحراشف ، والنّدوب ، بسَوْطهِ اللهبيّ قطيعَ الأحياء المجنون! حتى مكان لجوئكَ ، أيها البحر ، ومذابحكَ الفولاذية التي لا أدراج لها ولا أعمدة! ضامّاً بضربة واحدة السّيد والخادمة ، الغني والفقير ، الأمير وجميع ضيوفه مع بَناتِ المعتَمد ، وجميع الحيوانات ، الأليفة أو المقدّسة ، الرأس والجلد ، القرن والحافر ، والفحل الوحشيّ مع الغزالة ذات الغُصن الذهبيّ...

(لا يُحاوِلُ أحدٌ أن يَصْطحبَ الآلهةَ البيتيّة ولا السّلف الأعمى ، مؤسّس الطبقة . لم تعد وراءنا الزوجة الملحّة ، لكن أمامنا الشبق والإفراط . والرجل المُطارَدُ ، من حجر الى حجر ، حتى آخر نُتوءٍ من النضيدِ أو النّسيفة ، ينحني على البحر العتيق ويرى في لألأة عصورٍ بلون الأردواز ، الفَرْجَ التشنجيّ الضّخم بقنازعهِ الألف الرّاشِحة ، كالأحشاء الإلهية المُعَرّاة) .

*

... نحوكَ ، أنتَ ، الزوجةُ الكونية داخل أبْرشيّة المياه ، الزوجة الإباحية في فيض ينابيعها ومَدّ نُضْجِها ، تهبطُ الأرض المتدفّقةُ كلها في مَسيلِ الحب : الأرض العتيقة كلها ، جوابك ، المُعطَى بلا حد ـ طويلاً جداً من بعيد جداً ، ومن بعيد جداً ، يتنقل بطيئاً ـ ونحن أنفسنا معها ، بمَدَدٍ كبيرٍ من الشعب وبوطء أقدامٍ حاشدة ، في ثيابنا العيديّة وأنسجتنا الخفيّة ، كالإنشاد الأخير خارجَ الدور وخارجَ الإيبّودة ، وبالخطوة الراقصةِ نفسها ، يا للحشد! الذي يقود نحو البحر الزاخر الرَّحْب ، السّكرانَ بالبحر ، والأرضَ الطيعة الرصينة ، السّكرى بالأرض...

يا فيض ، يا نعمة!... والمبحر تحت الأشرعة الجاهِدُ في مدخل المضايق ، المقترب دواليكَ الى هذا الشاطئ والى ذاك ، يرى على الضّفاف المتعاقبة رجال سلالتين ونساءهما ، مع حيواناتهم المرقّطة ، كجموع من الرهائن على حدّ الأرض ـ أو بالأحرى الرعاة الذين لايزالون يمشون ، بخطواتٍ ضخمة ، فوق المنحدرات ، مشية الممثلين القدامى وهم يلوّحون بعصيّهم .

وعلى البحر القريب تنطلق البراثن الكبيرة لحرْث تضيّقِ المياه . والى الخلف يتفتح البحر الغريب ، عند مخرج المضايق ، الذي لم يعد بحر عاملٍ التزاماً ، بل عتبة كبرى لِلفلك الأكبر ، وعتبة عظمى للعصر الأعظم ، حيث الربان مسرَحٌ ـ البحر انفتاح

عالم المحظور ، على الوجه الآخر لأحلامنا ، آه! كمثلِ تجاوز الحلم ، والحلم نفسه الذي لا نجترئ عليه!...

٤

ـ لهذا نقول عمرنا الإنساني ، والى هذا يذهبُ مديحُنا :

« ... إنه كمثلِ حجر التقديس خارجَ أغطيته ؛ بلون السيف الذي يتكئ على هيكله الحريري الأبيض .

« في نقائه المطهَّر تسود أسسُ نعمته ؛ ينعكس عن السماء المتحركة ، وفقاً لِصورته .

« إنه بحرٌ اتحادي وبحرُ مؤالفَة ، في ملتقى جميع البحار وجميع الولادات .

« ... إنه البحر السّكران بالبحر ، وبحر الضحك الأكبر ؛ ويجيء الى شفتي الأكثر سكراً ، في كتبه الكبيرة المفتوحة كحجر المعابد :

« بحرٌ لا يُعدّ في أعداده وفي تكثّر أعداده ؛ بحرٌ لا يتعب في أقاليمهِ وإحصاءاته الممالكية!

«يكبر بلا أرقام ولا أشكالٍ ويجيء الى شفتي الأكثر سكراً ، كهذا الإحصاء المنطوقِ الذي يشار إليه في الاحتفالات السرية .

«... **بحر** الابتعاد النبيل ، و**بحر** الزمن الأكثر طولاً ، حيث تتبطّل الممالك الفارغة والأقاليم التي لم تُمْسَح ،

«إنه الشريد بلا عودة ، وبحر الهجرة العمياء ، آخذاً في مسالكه الكبيرة المقفرة وآثاره ، بين أشكاله الكبيرة من المراعي المرسومة ،

«آخذاً جمهور شعبه وقبائلهِ التابعة ، نحو الامتزاج البعيد في سُلالةٍ وحيدة واحدة .

«أأنتَ لي حضورٌ ؟ ـ يصرخ الأكثر سكراً ـ أو بقيّةُ فأل ؟ إنه أنتَ ، أيها **الحضور** ، وأنتَ من يتخيّلُنا .

«نتمثل بك : «كنْ هناك!» لكن ، أنتَ لوّحت لنا بإشارة أخرى لا يراغ عنها ؛ وصرخت لنا بهذه الأشياء التي لا قياس لها .

«وقلبنا معك بين الزبد النبويّ والإحصاء البعيد ، والفكر يأبى أن يفكر بمكان تدفقاتك .

«كنا نسمّيكَ الزوجة نصف الأرضية : كمثل المرأة ، دَوْريّةً ، وكمثل المجد ، موسميّاً .

«لكنك تمضي ، جاهلاً إيّانا ، مدحرجاً كثافة لغتك فوق كآبة أمجادِنا وشهرة الأماكن المغمورة .

«أينبغي أن نصرخ ؟ أينبغي أن نصلّي ؟... تمضي ، تمضي ، أيها الضخم ، الباطل ، وتتبختر أنت نفسك على عتبة ضخامةٍ أخرى... »

*

الآن قلنا لك مَنْ أنت ، والآن سَنقتفيكَ ، ونفيد منك في شؤوننا البشرية :

«أصغِ ، وستفهمنا ؛ أَصغِ ، وستنجدنا .

«أنتَ يا من تخطئ بلا حدٍّ ضدّ الموت وزوال الأشياء ،

«أنتَ يا من تغني بلا حدٍّ وقاحةَ الأبواب ، صارخاً أنت نفسك عند أبوابٍ أخرى ،

«وأنتَ يا من تطوف عند الكبار كهدير الروح التي لا مأوى لها ،

أنتَ ، في أعماق هاوية الشقاء الجاهزة لجميع سيوفِ الحبّ الكبيرة ،

«أنتَ ، في امتحان أقنعتكَ ـ أقنعة الجذَل الكبرى ، الجاهز ليغطيك بتقرّحاتٍ عميقة ،

«كن معنا في الضّعف والقوة وغرابة الحياة ، أكثر علواً من الفرح ،

«كن معناً بحرَ المساء الأخير ، الذي أنّبنا على أعمالِنا ، والذي سيعفو كذلك عن سيّئاتِنا ،

«وتفضّل في ساعة الهجر وتحت أشرعتِنا الخائرة ،

«بأن تؤازرَنا كذلك ، بهدوئك العظيم ، وقوّتك ، ونَفَسِكَ ، أيها البحر يا منشأ النظام الأكبر!

«ويجيئنا الفضل في الحلم باسمكَ البحرِ ، وحده!...»

*

نبتهل إليك أخيراً أنت نفسك ، خارجَ دوْر الشاعر .

ألا لا يكن بعد الآن لأجلنا ، بينك وبين الجمهور ، بريق اللغة الذي لا يطاق :

«... آه! كان عندنا كلمات لأجلك ولم يكن عندنا من الكلمات ما يكفي ،

«وها هو الحب يمزجنا مع موضوع هذه الكلمات نفسه ،

«والكلمات لم تعد لنا ، لأنها لم تعد إشارات ولا حُليّاً ،

«بل أصبحتِ الشيء نفسه الذي ترسمه والشيء نفسه الذي تزينه ؛

«أو بالأحرى ، ها نحن ، إذ ننشدك الحكاية ، نكونك أنتَ نفسك ، الحكاية ،

«ونحن إياك أنت نفسك الذي كنت لنا النقيض : النصّ نفسه وجوهره وحركته البحرية ،

«والرداء الإيقاعي الكبير الذي نرتديه...»

وأنت ، أيها المتحرك ، إذ نتحرك فيك ، أيها الحي ، وإذ نصمت ، نعيشك أخيراً ، يا بحر الاتّحاد ،

يا بحر الإلحاح المضيء وبحر الجوهر الفائق البهاء ، نُهلّل لك أخيراً في تلألؤك البحريّ وجوهرك الخاصّ :

على جميع الخلجان التي تضربها المجاذيف المتلألئة ، على جميع الشواطئ التي تسوطها سلاسل البربري ،

آه! على جميع المراسي الممزقة لعُقاب الظهيرة ، وفي جميع السّاحات الحجريّة المستديرة المفتوحة أمامك انفتاحها أمام القلعة المسلحة ،

نهلّل لك ، أيها الحكاية! ـ والحشد واقفٌ مع المنشد ، والبحر في جميع الأبواب ، يتوهج ، متوَّجاً بذهب المساء .

وها هو الجمهور ، بعصفٍ كبير هابط في المساء لملاقاة المساء البحريّ ، يسير خارج الحلبة ، وهَا طيران أوراق الأرض الصفْر ،

والمدينة كلها في مسيرة نحو البحر ، مع الحيوانات المزينة بالمصوغات النحاسية ، والممثلين الصامتين بقرونهم المغلّفة بالذهب ، وجميع النساء المحمومات ، والنجمة المشتعلة في نيران المدينة الأولى في الشوارع ـ كل شيء يتجه نحو البحر ومساء المدّ ودخان الاتّحاد على المياه ،

في الاختلاط الإلهي وانحلال الإنسان عند الآلهة...

٥

ـ على المدينة المقفرة ، فوق الحلبة ، ورقةٌ تائهة في ذهب المساء ، لاتزال تبحث عن الجبين الإنسانيّ... الله الغريب في المدينة ، والشاعر الذي يعود وحده مع فتّيات المجد الكئيبات :

« ... **يا بحر البعل ، يا بحر مامّون ؛ بحر كل عمرٍ وكل اسم!**

« البحر الرَّحِميّ لأحلامنا والبحر المسكون بالحلم الحق ،

« أيها الجرح المنفتح في خاصرتنا ، يا جوقةً عتيقة على بابنا ،

« أنتَ الهجوم وأنت الألق! أنت الجنون كله والرَّغَد كله ،

« وأنت الحب وأنت الحقد ، الرحيم والجبار ،

« يا أنت يا من يعرف ولا يعرف ، يا من يقول ولا يقول ،

« من كل شيء تتعلم وفي كل شيء تصمت ،

« وفي كل شيء أيضاً تنهض ضد طعم الدموع ،

«مرضعاً وأماً ، غير شرسة ، عشيقة وأماً لِثاني البِكْر ،

«أيها القريب من جهة الأب والبعيد جداً ، أيها البكورية ويَا ارتكابَ المحارم ،

«أنت الرأفة العظيمة بجميع الأشياء الفانية ،

«البحر الذي لا يمكن التخلي عنه ، والبحر الذي لا يُفارَق! سَوْطُ شرفٍ ، وأخطبوط حب! أيها البحر الكامل المتصالح ،

«هل أنت ، أيها الهائم ، من سيسلمنا هذا المساء ، الى شواطئ الواقع ؟ »

اهداء



الجنوب ، وحوشه ، مجاعاته...

الجنوب ، وحوشه ، مجاعاته ، وعام البحر في ذروته على صفحة المياه...

ـ أيّ فتياتٍ سوداواتٍ وداميات يذهبن الى الرّمال العنيفة يُشاطِئْنَ امّحاء الأشياء ؟

الجنوب ، شعبه ، وشرائعه القاسية... الطّائر الأكبر يرى على آثاره الإنسان المتحرر من ظله ، في تخوم مُلكه .

لكن جبينَنا ليس بلا ذهب . ولاتزال مطايانا القرمزية سيدةً على اللّيل .

هكذا ، على طرف القارّات ، يطوف الفرسان المسلّحون عند الشواطئ الصّخرية أشباهَ الجُزُر .

الجنوب ، مصاهره ، نظامه الكبير... الشّناخات المجنحة تفتح بعيداً طريقها الزبديّ الأزرق .

الهياكل تتوهّج بملحها كله . الآلهة تستيقظ في الصّوّان .

ورجُلُ الرَّصَدِ ، عالياً ، بين ألوانه المُغْرِ ، وطباشيره الوحشي يُعلن الظهيرة الحمراء ببوقه الحديدي .

الجنوب ، صاعقته ، نبوءاته ؛ الجنوب ، وحوشه في الساحة ، وصرخته العُقابيّة فوقَ المراسي المقفرة!...

ـ نحن مَنْ سنموت يوماً ، نتحدّث يوماً عن الرجل الخالد في بيت اللّحظة .

المغتصب ينهض على كرسيّه العاجيّ . العاشق يغتسل من لياليه .

والرجل ذو القناع الذهبي يتعرى من ذهبه تمجيداً للبحر .

(١٩٥٣ـ١٩٥٦)

إشارة

ترجمت هذه القصيدة ، جزئياً أو كلياً ، إلى لغاتٍ عديدة بينها : الانكليزية (ترجمة كاملة لوالاس فاولي) ، الألمانية (ترجمة كاملة لفريد هيلم كمب) ، الاسبانية (ترجمة كاملة لليزاندرو ز . د . غالتييه) ، البرتغالية (مقطع : ابتهال ـ وأنتِ ريا بحار) ، الإيطالية (مقاطع مختارة ترجمة دييغو فاليري) ، السويدية (مقطع) ، البولونية (مقطع) ، اليونانية (مقطع) ، الأرمنية (مقطع) ، الصربية ـ الكرواتية (ترجمة كاملة لبوريسلاف رادوفيتش) ، التشيكوسلوفاكية (ترجمة كاملة لجيري كونوبيك) ، الهنغارية (ترجمة كاملة لغاز اسطفان فورديتازا) ، البلغارية (ترجمة كاملة) ، النروجية (مقطع : ضيقة هي المراكب) .

وقد ترجم أدونيس الى العربية مقطع : ضيقة هي المراكب ، ونشر سنة ١٩٥٧ في العدد ٤ ، من مجلة «شعر» . وتجدر الإشارة إلى أنه أعاد النظر هنا في هذه الترجمة وسيرى من يقارن بين الترجمتين أن هناك اختلافاتٍ عديدة ، لكن بعضها عائد الى الشاعر الذي أعاد النظر هو نفسه في قصيدته

حين نشرها بشكلها الأخير النهائيّ . وقد اعتمد المترجم في هذه الترجمة الكاملة ، الطبعة الأخيرة ضمن الأعمال الكاملة لسان ـ جون بيرس ، التي صدرت عن دار غاليمار في باريس ، في سلسلة «لابلياد» سنة ١٩٧٢ والتي أشرف عليها هو بنفسه .

« منارات »

هي الجزء الأول من الأعمال الشعرية الكاملة

لسان - جون بيرس

وسوف يصدر جزؤها الثاني، قريباً.

الفهرس

